حسين، كاميليا.
استغماية: رواية / كاميليا حسين.- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2023.
80 ص؛ 20 سم.
تدمك: 5 - 407 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية. أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 3486 /2023

©
الدار المصرية اللبنانية

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى:2023م

تصميم الغلاف الفنان: كريم آدم

الرواية نتاج ورشة كتابة «ستوريتل» للكتب الصوتية
بالتعاون مع الدار المصرية اللبنانية

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف
وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

جميع الحقوق محفوظة، ولا يجوز،
بأي صورة من الصور، التوصيل، المباشر أو غير المباشر، الكلي أو الجزئي، لأي مما ورد في هذا المصنف، أو نسخه، أو تصويره، أو ترجمته أو تحويره أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو تخزينه أو استرجاعه أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الدار.

©
storytel original
Stockholm, Sweden
Istighimaya, 2023
originally published as
a Storytel Original

استغماية

رواية

كاميليا حسين

إهداء

إلى **ماما**.. التي منحتني مفاتيح العالم، ورحلت قبل أن أتمكن من فتح الباب.
إلى **أحمد**.. رفقة الطريق، ونور القلب.

الفصل الأول

باب شقتي وحيد ومهجور، لا أفتحه كي لا يُزعج صرير مفصلاته الصدئة نوم الصغيرتين. باب مهجور إلا من عناكب اتخذت أعلاه مسكنًا، وعصافير أقامت عشَّها آمنة بجواره. تحب ابنتاي العصافير، وأخاف أن توقظهما الزقزقة؛ لذلك أُغلق بابي دائمًا، ولا أفتحه للغرباء، لكن ماذا لو سمعت صوت طرقات هادئة ومألوفة؟ ماذا لو دقَّ الباب غريبٌ يدَّعي أنه زوجي؟

بعد كل هذه السنوات هل أسمح له بالعودة؟ ربما يرقُّ قلب الصغيرتين لحظة وصوله، ستقول الكبرى: «هذا بابا»، وتقول الصغرى: «يُشبه صورته»، سيقول الأقارب والأصدقاء والبواب والمكوجي (الذي كان صبيًّا وقت أن رحل): «حمدًا لله على سلامته». سأقول لهم: «هذا غريبٌ لا أعرفه ولم ألتقِه قبل ظهوره في صالة منزلي». هل أردُّ الباب في وجهه؟ أم أسأله أين كان طوال سنواتٍ سبع؟ وأفتح أُذني لحكاياته؟ سأقصُّ لساني وأبتلع مخاوفي، وأقول: «هو زوجي أبو الصغيرتين»، ألا يكفي هذا كي أُصدق الحكايات وأفتح بابي وذراعَي؟

في الصباحات التي تتلو عودته ربما يبدو وكأنه يحاول تغيير مسار الزمن. سأخرج من المنزل للعمل في الصباح، وحين أعود ربما أجده قد غيَّر في ترتيب الأثاث.. نقل المكتب إلى غرفة النوم، في مكانه المفضَّل إلى جوار الحائط بعيدًا عن النافذة، أو علَّق في جميع أرجاء المنزل صورًا فوتوغرافية تجمعني به. سوف أتحسس الزجاج الذي يحجب الصور، أتأمَّل صورًا تجمعنا على شواطئ لا أذكرها. لو أشرت إلى صورة يحملني فيها بين ذراعيه، من خلفنا بحر وجبال ممتدة لا أعرفها، ربما يُجيب: «يمكنكِ استعادة الذكرى لو اقتربتِ». هكذا سأسمح له بالنوم في فراشي. سوف يُدهشني كيف يعرفني الغريب حتى في الفراش. أتذكر كيف اعتاد أن يعرف جسدي ويحفظ مفاتيحه، ورغم ذلك ظلت الدقائق تمضي ببطء، وجسدي خامل كدُميةٍ قطنيةٍ بالية. وحين أشعر بالإرهاق والملل أتظاهر ببلوغ النشوة كي أمنحه إيذانًا ببلوغ نشوته التي استطالت حبستها. وحين ننتهي أُدير وجهي للحائط المجاور.

«عشرة، عشرين، ثلاثين». الاستغماية لُعبتي المفضلة، أُدير وجهي إلى الحائط وأبدأ في عد العشرات: «أربعين، خمسين، ستين». أسمع صوت الخطوات الصغيرة المرتبكة وهي تجري من خلفي متخبطة، فأرفع صوتي وأُتابع: «سبعين، ثمانين». وأُردِّد العبارة التي اعتاد أبي ترديدها في صغري: «خبِّي ديلَك يا عصفور، ثمانين، تسعين، خلاويص؟»

أراد أبي أن يُخفي ذيلي، فنتف ريشه وقص جناحَي. أستدير بعيدًا عن الحائط وأتساءل: «أين راحت العصفورة؟» أتجول متمهلة في أرجاء الشقة، يصلني صوت الأنفاس المتسارعة وأتخيل صغيرتي وهي تضع كفها على فمها وتجاهد لكتمان الضحك. «أين راحت عصفورتي يا ترى؟» ألمح طرف قدمها الصغيرة ظاهرًا من خلف الستائر. لماذا لا تجيد العصافير الصغيرة إخفاء ذيلها؟ تجاهلت البحث خلف الستائر، ورحت أتظاهر بالبحث في بقية أركان البيت، أنظر تحت المقاعد، وأبحث خلف الأريكة وتحت المنضدة، وخلف ذرات الغبار. وأخيرًا أقول بصوتٍ يبدو يائسًا: «خلاص استسلمت» كي تخرج العصافير من مخبئها وتعود إلى حضني.

تقول ابنتي الكبرى إنها تحب لعب الكرة مع أبيها أكثر من الاستغماية، أتذكر كيف اعتادت أن تتجاهلني وتجري كي تلعب معه. كنت أنسحب كي أجلس في مقاعد المتفرجين المجاورة للملعب، وأكتفي بالمراقبة. أراه وقد ظهرت كرة القدم فجأة بين قدميه. وأتأمل كيف يؤرجحها بمهارة بين القدمين والكتفين والرأس، وعلى وجهه ابتسامة ثابتة ومنتصرة. لم تنجح الكبرى في اقتناص الكرة أو ركلها سوى مرةٍ أو اثنتين، بينما وقفت الصغرى بعيدًا دون أن تقترب منهما. هل كان يلاعبهما حقًّا؟ كنت أراه من مكاني يتلاعب بالكرة ويقذفها في حركات استعراضية لجمهور لا يراه سواه، اختصر فيَّ طفلة لم تتجاوز العاشرة وأخرى لا تهتم حتى بالنظر تجاهه.

أراقب كيف يستعرض حركاته الماهرة، وهو يحكي لها في الوقت نفسه، دون أن يتهدج صوته أو تتقطع أنفاسه، تنساب من فمه حكاية مكررة أحفظها جيدًا حول مهاراته التي أدهشت الجميع في صغره، كيف انضم لواحدٍ من أكبر الأندية، وكيف تقاتل مدربو فرق الناشئين عليه، وقد أذهلتهم هذه المهارة والحرفنة السابقة لأوانها. يحكي لها كيف وقف على عتبات المجد وكرته بين قدميه، لولا تدخُّل أبيه الذي رفض أن يضيع مستقبل ابنه بين الركلات والإصابات.

أعرف الحكاية ولا أعرف الرجل، سمعتها منه أكثر من عشر مرات، لكن لم يكُن الصوت صوته ولا الوجه وجهه. تتغير الحكاية والصوت في كل مرة يحكيها بحسب مَن يستمع له، وأجلس أنا لأراقب الحكاية وألوانها المختلفة. أحاول أن أميز من بين الحكايات ظلال الحكاية القديمة التي حكاها لي مرة واحدة قبل الزواج، حكاية كان يُضلل فيها أعين زملائه بالركض السريع كي لا يلمحوا الثقب في وجه حذائه، حكاية لعب خلالها في الشوارع الخلفية المجاورة للنادي الكبير، لا داخل أسواره، وجلس من بعيد يتأمل بوابته.

كان يحكي للصغيرة المتذمرة ويتابع ركلاته الاستعراضية للكرة، حين أخذته غفلة بسيطة أتاحت لها أن تخطفها منه وتجري بها بعيدًا. لم يستغرقه الذهول أكثر من ثوانٍ قبل أن يُفيق، ويلحق بها في خطوتين، حملها بين ذراعيه وأخذ يدور بها وهو يدغدغها، كانت الصغيرة تضحك، وهو يردد ضاحكًا أن مَن يأخذ كرته لا يفلت من العقاب.

تذكرت كرتي البرتقالية، كنت الطفلة الوحيدة من أطفال الحارة التي لا تتجاوز بوابة البيت للعب خارجه. أذكر كيف بدأت وصلة طويلة من البكاء في ذلك اليوم، قُلت لأبي إن صالة البيت تضيق عليَّ وعلى كرتي، وأني أريد أن ألعب مثل الجميع في الحارة. قُلت إنه يسجنني بين جدرانه، وإن الأطفال يمرحون بالخارج، وإن أحدًا لا يخطفهم كما يدَّعي دائمًا. أتذكر كيف صمت وقتها، تركني أبكي ودخل إلى المطبخ دون كلام، ثم عاد بعد قليل بكوب الشاي الثقيل ليجدني أركل الكرة إلى الجدار كعادتي وقد تعبت من البكاء.

جلس يتأملني، وبعد أن شرب نصف كوب الشاي، وضعه على المنضدة وأمسك بجريدته، تظاهر بالبدء في قراءتها لدقائق، قبل أن يرفع وجهه ويتجاوز مخاوفه ويسمح لي أخيرًا بالخروج.

لم تكُن الكرة حتى ذلك اليوم قد لامست سوى بلاط شقتنا وسجادها، ما جعل لونها البرتقالي المزركش بدوائر صغيرة سوداء زاهيًا، مقارنة بالكرات الأخرى المعفرة في تراب الحارة وأوحالها. ترك العيال جميعًا كراتهم والتفوا حولي في حلقة مزدحمة يرغبون في اللعب بالكرة الجديدة. صاح مَن بدا أنه أعقلهم أنها كرة خفيفة وناعمة، لا تتحمل أقدام العيال الخشنة. همس: «سيمزقونها». وأشار إلى أقدامهم الحافية، وقد خلعوا نعالهم وركضوا حفاة، يركلون كراتٍ قديمة ممزقة لم أتمكن من تمييز لونها الأصلي. أدخل قدميه في نعله وقال: «تعالي نلعب بها وحدنا». تركتهم جميعًا والتفت إليه، وقف أمامي على مسافة قريبة وقال: «هيَّا، اركلي الكرة».

ركلتها فردَّها لي. وهكذا مرة واثنتان وعشر، دون أن تلحظ عينَي الطفلة كيف كان يبتعد خطوة إلى الوراء في كل مرة، حتى إنه مع ركلتي الأخيرة القوية، وصل إلى آخر الحارة تقريبًا. سمعته يضحك بصوتٍ عالٍ ويصيح: «برافو». ثم أخذ يقذف الكرة في الهواء، يتلاعب بها بحركات استعراضية، ويقذفها بين رأسه وكتفيه. شعرت بالملل وطلبت منه أن يُعيد كرتي؛ ضحك، وبدلًا من أن يركلها تجاهي، التفت إلى الخلف، ركلها إلى خارج الحارة، ركض خلفها وغاب عن عينَي.

لم أحاول اللحاق به، كانت هذه مرتي الأولى خارج المنزل، ولم أكُن أعرف ما خلف حدود حارتنا. وهكذا تركت كرتي البرتقالية اللامعة تختفي، وعدت إلى المنزل بيدين خاويتين، كي أتلقَّى بينهما توبيخ أبي. وعبارته المعتادة «قُلت لكِ»، ومن يومها لم أعُد للعب خارج البيت.

صالحني أبي بعد يومين، واشترى لي كرة جديدة كي ألعب بها بين جدران البيت الآمنة، أركلها إلى الجدار وترتد لي، فأركلها من جديد، مطمئنة للجدار الذي لن يأخذ الكرة ويتركني وحيدة.

أفكر أحيانًا في أن الوراثة لا منطق لها، فالصغار يصلون إلى نتائجنا حتى لو لم يمروا بالمقدمات ذاتها. في النادي كانت ابنتي تترك الأطفال الآخرين وتذهب إلى جدار قصي في طرف الملعب كي تبادله ركل الكرة. أسألها: لِمَ لا تلعب مع الصغار الآخرين؟ تهز كتفيها وتقول إنهم لا يجيدون اللعب مثل الجدار. أتساءل: لماذا لا تلعب مع أختها الصغرى؟ أقول: ربما لا تحب الصغرى لعب الكرة.

أحيانًا أود ضرب رأسها في هذا الجدار بدلًا من الكرة، أن أصرخ فيها: «لديكِ كُرة وشقيقة ونادٍ وأصدقاء، فلماذا تختارين أن ترثي جداري؟» لكني كنت أكتفي بالصمت والجلوس بعيدًا وتأمُّل ركلاتها الغاضبة.

الفصل الثاني

«عشرة، عشرين، ثلاثين، خلاويص؟»

لم يُجبني أي صوت، ولا حتى صوت خطواتهما. أستدير بعيدًا عن الحائط، وأتجول في الشقة على مهل، أستمتع بالصمت والسكون الذي لا يمزقه سوى صوتي عندما أنادي: «خلاويص؟». أفتح باب الغرفة الخالية وأضيء النور، أنظر خلف الباب، على الجدار أرى خربشات صغيرة، أرقامًا وحروفًا بلا رابط، وشطرًا من بيت شعر قديم، كانت على ارتفاع أطول من أن تصل إليه أيدي الصغار. أغلقت الباب ورحت أدور على أبواب الغرف الأخرى، خلفها جميعًا كانت الخربشات، أرقام وأبيات شعر لم أفهم الرابط بينها. لكني فكرت في أن هذه الخربشة على الحوائط قد تصبح أحيانًا الدليل الوحيد على مرور الأيام، وتعاقب الليل والنهار.

لقد اعتدت أنا أيضًا أن أفعل ذلك في صغري، أذكر كيف كنت أقيس طولي كل جمعة بخربشة صغيرة على الجدار بمحاذاة كتفي وأسجل التاريخ إلى جوارها. هكذا حكيت لزوجي حين عرفته في أيامنا الأولى، في تلك البدايات البعيدة، أثناء سيرنا في الطريق من الجامعة إلى ميدان الجيزة، كنَّا نغزل الخطوات بالأحلام، ونشبك في أطرافها الحكايات كي لا تطير وتتخلى عنَّا. كانت أحاديثنا تمد أناملها برفق كي تبدل بعوادم السيارات فراشات زرقاء تزيح الركود والقسوة عن الميدان المزدحم، وتخفف من غلظة الأرصفة وضيقها كي تتسع لخطواتنا. سنوات الجامعة كانت مساحتنا الحرة للتجربة وألاعيب الحب والشِّعر والحكايات.

يحكي لي بخجلٍ كيف أخفى عن العيون حذاءه الممزق، فأحكي عن خرابيشي على الجدار، كأننا نقايض الخربشات بالحكايا، نتبادل جروح الطفولة، نفتحها سويًّا ويتظاهر كل منَّا بأنه لا يتقزز من قيح جرح الآخر. هكذا كنَّا في الأيام القديمة، قبل أن تبتعد البدايات في الخلف، وتأتي الصغيرة لمزاحمة الحكايات والخرابيش، بقصص مكررة مملة، وشخابيط بلا معنى على الحوائط.

على مقعد خشبي خلف مبنى كلية الآداب القديم، اعتدت أن أجلس إلى جواره، أمسك طرف مسطرة معدنيًّا، كي أخربش شطرًا من بيت شعر يُحبه على خشب المقعد، وأحكي له كيف كنت أخربش الجدران في صغري. كانت صورة أبي مرسومة في رأسه من ذيل حكاياتي

عنه، يسألني كيف يرضى أبي عن ذلك. أبتسم وأخبره بأني كنت أستغل الجزء الخفي من الجدار خلف باب غرفتي، ذلك الباب الذي لم يسمح أبي لي أبدًا بإغلاقه. لم أخبره عن الجزء الأقدم من طفولتي، عن السنوات التي قضيتها في بيتٍ آخر، لا يمكن لأبي فيه أن يميز خربشات الجدران، حيث ترسم طبقات الطلاء الجيري المتقشرة أشكالًا متداخلة، بألوانٍ مختلفة، تشهد على محاولاته المتتالية لمقاومة الرطوبة التي أسقطت طبقة الطلاء في كل مرة مخلفةً بقعًا عديدة مختلفة الأشكال والأبعاد. في خيالي كنت أرى في بقع الحائط وجوهًا مختلفة؛ وحوشًا، وأشجارًا، وحيوانات، وعجائز طيبين يمكنني أن أبادلهم أسراري بثقة. أحيانًا كنت أعمد إلى إزالة طبقات الجير بحافة المسطرة حتى أصل إلى طبقة الملح التي راكمتها الرطوبة أسفل الطلاء. أتلذذ بتذوقه في الخفاء، سر صغير أحفظه، ولا يعرفه سواي أنا والوحوش والعجائز الطيبين على الحائط. هكذا جلست إلى جواره في أيام البدايات على مقعد خشبي في ساحة الجامعة، كي أحكي له نصف الحكاية، منحته الخرابيش وأخفيت العجائز والوحوش.

ناديت مرة أخرى: «خلاويص؟» لم أسمع صوتًا. دُرت أبحث خلف الستائر، وفي الدواليب، وأسفل المكتب، حيث لم أجد سوى طبقةٍ من التراب المتراكم، وخيوط العناكب العالقة في الزوايا. ربما لهذا توقفتا عن الاختباء هنا. لعلي أحتاج لأن أنظف هذا المكان جيدًا كي تعودا إليه. أحضرت قطعة قماش مبللة ومقشة وجاروفًا. أزحت خيوط العنكبوت كي لا تعلق بخصلات شعر الصغيرة الأشقر. ونظفت الأرضية جيدًا من التراب. هكذا يمكنها العودة للجلوس هنا في أي وقت. جرَّبت أن أجلس أسفله كما اعتادت أن تفعل، ضممت ركبتَي إلى صدري وأحنيت ظهري كي لا يصطدم رأسي بالجانب السفلي من سطحه، كان المكان ضيقًا للغاية. تساءلت: كيف كان جسد طفلتي صغيرًا لهذا الحد؟ أذكر كيف اعتادت أن تختبئ دائمًا أسفل المكتب بينما تدور شجاراتنا أنا وأبيها في المساحة الصغيرة أعلاه.

أتذكر كيف كان أبوها يجلس إلى مكتبه الذي اعتاد أن يضعه في مواجهة الحائط، كي يولي العالم ظهره ويتمكن من العمل دون توقف، تك.. تك.. تك، كأن دقات أصابعه على لوحة المفاتيح تسابق زمنًا له إيقاع أسرع من إيقاع زمننا. يضع السماعات في أذنيه، ويرفع صوت الموسيقى كي لا يعطله بكاؤها، ولا رضاعتها، ولا تغيير الحفاضات، ولا آلام الانتفاخ، ولا نوبات ارتفاع الحرارة. يوقظني البكاء، فأقوم لأرضعها، ثم أعود إلى النوم،

ولا تمر ساعة قبل أن تستيقظ مجددًا. أصحو وأنام عدة مرات، في دورات تسلم بعضها بعضًا وتبدو بلا نهاية. وحين أقوم أخيرًا في الصباح التالي أجده لا يزال جالسًا كما هو دون أن يستدير.

أما الأوقات القليلة التي استدار فيها فقد كانت مليئة بالغضب. يصرخ بأنه لا يستطيع التركيز في عمله مع بكاء الصغيرة. فأقول أنا أيضًا لا أستطيع الكتابة منذ ولادتها. يسخر من مقارنتي للكتابة بالعمل. وقد نسي الشِّعر والفراشات وخرابيش الحكايات، أناوله سخرية بسخريةٍ وأسخر من عمله الذي ينكفئ عليه طوال الليل فلا يمنحنا في النهار سوى الفتات، فتات الوقت، وفتات المال، وفتات الرجل. يدَّعي الغضب ويترك البيت، يغيب لأيام، أبقى فيها مع الصغيرة، أدور بين الحفاضات والرضاعة، ثم يعود ويعتذر أو أعتذر أنا. ومجددًا يرجع لجلسته على المكتب، وجهه معلق بشاشة الحاسوب وسماعاته في أذنيه، وتمر أيامه هكذا منعزلًا عنَّا خلف موسيقاه.

عندما كبرت الصغيرة وبدأت في الزحف والحركة حوله، جعلت أسفل المكتب بيتًا لألعابها. أحبَّت الاختباء واللعب أسفل المكتب دائمًا. «رغم أن المكان هنا ضيق»، تمتمت لنفسي وأنا أخرج من المساحة الضيقة المؤلمة، ونهضت لترتيب الأوراق على سطح المكتب. مسست طبقات التراب المتراكمة بأطراف أصابعي، وتأملت أُصص النباتات الذابلة التي حاولت تذكر أسمائها دون جدوى.

أتذكر حماسي حين اشتريتها، وكيف وضعتها في العربة الكبيرة ثم استمتعت بشعور الضياع في أروقة المتجر، التي تشبه المتاهات، وممراته الطويلة المرقمة بحروف الأبجدية والأرقام، دفعت العربة المعدنية الثقيلة بين الصناديق المتراصة على جانبي الممرات، أبحث بمساعدة الأرقام والحروف التي دونتها على ورقة بيضاء صغيرة بقلم الرصاص عن أجزاء المكتب المغلفة والمجهزة في صندوقين. حين وصلت أخيرًا إلى الممر الصحيح أدهشني أنهما كانا صندوقين صغيرين مقارنة بحجم المكتب النهائي. أخبروني أثناء الدفع أن هناك خدمة للمساعدة في تجميع الأثاث، لكني صممت أن أفعل كل شيءٍ بمفردي. عدت يومها إلى البيت وسهرت طوال الليل كي أركبه، افترشت الأرض ومن حولي تناثرت ألواح الخشب المغلفة باللون الأبيض، والمسامير الفضية اللامعة، وأوراق التعليمات التفصيلية، وببطءٍ وروية صرت أُجمِّع القطع وأربطها ببعضها بعضًا، وأرى المكتب يكتمل أمامي، وأنا أتذكر كيف اعتادت الصغيرة أن تبني بيوت الدُّمى بقطع مكعبات الليجو.

يومها اخترت أن أضع المكتب هنا، أسفل هذه النافذة بحيث أواجهها عند الجلوس بدلًا من مواجهة الجدار. لم تكُن النافذة تطل على السماء الواسعة كما كنت أتمنى، كانت تطل على مبنى سكني مقابل، لكنها على الأقل تسمح للقليل من ضوء الشمس بالدخول. فوق النافذة علقت الستائر البيضاء المصنوعة من الدانتيل التي اشتريتها من المتجر نفسه. رخيصة السعر، لكنها تمنح المكان هذه اللمحة الأنيقة والبسيطة في الآن ذاته. رتبت بعض أواني النباتات المزهرة على المكتب، ووضعت بعضها الآخر على حافة النافذة. بعد أن لمعت أوراقها الخضراء جيدًا بقطعةٍ مبللةٍ من القطن. أتذكر أني حفظت أسماء النباتات بالعربية والإنجليزية، وانشغلت لأيام طويلة بالبحث حول الطرق المختلفة للعناية بها، في ذلك الوقت كنت عضوة نشطة في الكثير من المجموعات الخاصة بالعناية بالنباتات على فيسبوك، كانت تحمل أسماء مثل: ازرع بلكونتك، وازرع سطح بيتك، وربما حتى ازرع تحت سريرك. لكن رغم كل النصائح التي اتبعتها بحذافير حذافيرها، انتهى الحال بالنباتات مثل كل مرة إلى الذبول. ولم يبقَ منها سوى صورة التقطتها في اليوم الأول، وقد توسط جهاز اللاب توب بشاشته اللامعة سطح المكتب الأبيض وبجانبه كوب القهوة الخزفي الملون. أعدت ترتيب الأصص بحيث تختفي أطراف الأوراق الذابلة في الخلف وتظهر أزهار اللافندر والونكا الملونة واضحة في المقدمة. وفي النهاية جاءت الصورة «حالمة» تمامًا مثل اسم «فلتر» تعديلات الصور الذي استخدمته، عدَّلت الألوان، وقصصت أجزاء الصورة التي تظهر فيها الفوضى المحيطة بالمكتب، ثم نشرتها على حسابي في إنستجرام وكتبت معلقة عليها بالإنجليزية: «ركن الكتابة الجديد». ومن بين كل التعليقات اللطيفة التي جاءتني أزعجني تعليق يبدو مندهشًا بشأن «عودتي» إلى الكتابة. مَن قال إني توقفت؟

استبشرت بمكان المكتب الجديد، فلا يزال بإمكاني الجلوس هنا أمام النافذة للكتابة حتى بعد أن ذبلت النباتات، أتذكر نباتات أمي في ذكرياتي المشوشة القليلة الباقية عنها، أتذكر كيف كان أبي في أوقات الرضا النادرة يُقبِّل كفيها المكتنزتين ويدعو لها قائلًا: «ربنا يخضَّر ما بين يديكِ». لم أرث كفيها، أتذكر كفَّي أمي جيدًا، وأنسى أحيانًا ملامح وجهها. كفان بأصابع قصيرة ومكتنزة، مصبوبة صبًّا، لا يمكنك أن تميز فيهما مفاصل الأصابع أو العظام عن اللحم، ويمكنهما زراعة أي شيءٍ وكل شيء. أتذكرها وهي تُعد طبق السَّلطة، وتأخذ بأصابعها القليل من بذور الطماطم، هوب، نجد شُجيرة طماطم صغيرة بعد أشهر

قليلة في الشرفة. كنَّا أحيانًا نأكل اللب في ليالي الخميس أمام التلفزيون، ودون أن أنتبه تمتد أصابعها وتأخذ القليل من بذور اللب السوري النيء، لأستيقظ بعد أسابيع على أزهار عباد الشمس الصفراء وقد ملأت الأواني الزجاجية المنتشرة في البيت. النعناع والريحان والبقدونس والملوخية، نباتات لم نكُن نشتريها من السوق وإنما نقطفها من الأصص التي تملأ شرفتنا والتي حوَّلتها أصابع أمي المكتنزة الدافئة إلى حديقةٍ صغيرة. أتامل أصابعي النحيلة التي ورثتها عن أبي، قالت أمي لتجبر بخاطري إن أصابعي تصلح لعزف البيانو، لكن أحدًا لم يذهب بي إلى دروس بيانو. اعتدت أن أكره كفي منذ الصغر، أن أخجل من هذه الانحناءات الحادة بين مفاصل أصابعي النحيلة، ومن اسمرار لون عُقلات الأصابع، عن بقية ظاهر الكف، من آثار الخدوش الصغيرة التي تملؤها، من أظافري المقضومة والجلد المشوَّه من حولها، من التجاعيد الدقيقة التي تمنح كفي عشر سنوات إضافية من العمر، والأسوأ من أني لم أرث اخضرار كف أمي. أورثني أبي أصابعه النحيلة، ومعها لعنة أن يتحول كل ما ألمسه إلى رماد، ربما لذلك لم أنجح أبدًا في الزراعة رغم كل التجارب والقراءات.

كنت أقرأ مقالًا بعنوان: «10 نباتات لا يمكنك أن تقتلها» عن النباتات التي تسهل العناية بها وأضحك ساخرة؛ فقد قتلت من هذه الأنواع تسعة من قبل. لكني لم أكن أيأس، أخرج لإحضار النوع العاشر إلى النافذة، كي يذبل ويموت ويلحق بسابقيه. ورغم ذبول النباتات، وتراكم التراب على سطح المكتب وعلى لوحة مفاتيح جهاز اللاب توب وشاشته المرفوعة دائمًا، كنت أجلس إليه لساعات، أدق على أزرار لوحة المفاتيح بدلًا من البيانو الذي لم أعرف ملمس أزراره أبدًا سوى في خيالي. أتأمل صفحة الوورد البيضاء، أكتب القليل ثم أعود كي أمسح السطور التي كتبتها، وأشرد لساعات في الفراغ الماثل بين عينَي وبين البناية المواجهة، لكن كل شيءٍ تغير حين انفتحت أمامي النافذة.

الفصل الثالث

أحب أن أصدق أن الفتاة الصغيرة في النافذة المقابلة كانت تراني قبل أن أراها، وتنتظر اللحظة المناسبة لتفتح نافذتها. أتخيلها واقفة هناك لساعاتٍ خلف الشيش، تراقب من بين فتحاته المرأة الوحيدة التي تجلس في كل صباح إلى مكتب أبيض، مع إبريق قهوة أمريكية ممتلئ، وكوب خزفي ملون لا تغيره، وتقضي ما لا يقل عن نصف ساعة في التقاط الصور بهاتفها للكوب مع الإبريق وهي تغير ترتيب أواني النباتات كي تُخفي الذابل منها. ربما لا تعرف أنها تقضي بعض الوقت بعد ذلك في نشر الصور على الإنستجرام، ومتابعة التعليقات والإعجابات والرد عليها جميعًا، قبل أن تجلس أمام جهاز اللاب توب المفتوح كي تحدق في شاشته شاردة. أحب أن أصدق أنها جلست لأيام خلف نافذتها المواربة، مدفوعة فقط بفضولها الطفولي لمراقبة المشهد اليومي المتكرر، وأنها قررت أن تكسر مللًا اعتقدتْ أنه مشترك بيننا فقامت أخيرًا كي تفتح النافذة.

لكم من الوقت ظلت واقفة هناك تحدق في وجهي؟ لا أعرف، لكن حينما انتبهت لها أخيرًا ابتسمتْ لي فابتسمتُ لها، أشارت بالتحية وقالت: «أهلًا»، فأشرتُ لها وقلتُ: «أهلًا وسهلًا». يعني ماذا يفعل الإنسان إذا تبسم له طفل وقال أهلًا، خاصة لو لم يكن طفله. دائمًا يمكن للأطفال توريطك في حكاياتهم، هكذا تنغرس قدماك دون أن تنتبه.

هل كانت تخطط لتلك اللحظة؟ ربما، فقد بدت ابتسامتها واثقة حين لوحت لي بكفها بلا تهيب، ثم رفعتْ دُمية محشوة قديمة بين ذراعيها، وظلت تقذفها إلى الأعلى ثم تلتقطها وهي تضحك. ضحكتُ وتجرأتُ على رفع صوتي كي أسألها عن اسم الدُّمية فابتسمتْ وأجابتني، لكنها صمتت وتجاهلت سؤالي حين سألتها عن اسمها هي، استدارت ولوحت لي مودعة ودخلت. لم تُغلق النافذة ولم تُسدل الستائر، دفعني الفضول لمتابعة النظر، رأيتها تخرج من باب الغرفة، وفوجئت بوجود نافذة أخرى لم ألحظها من قبل، كانت مجاورة للأولى، مفتوحة بلا ستائر، وتطل على صالة بيتهم.

دققت النظر، بدت صالة بيتهم كأنها نسخة أخرى من صالة بيتي، لكنها نسخة أكثر تنظيمًا وأناقة، كان المطبخ مفتوحًا على النظام الأمريكي مثل مطبخي، لكنه مرتب، بلا أطباق متراكمة في الحوض. وفي مقدمته منضدة طعام مرتفعة بسطح رخامي أسود لامع، وقد اصطفت أمامها أربعة مقاعد معدنية عالية بأرجل لامعة، مبطنة بالجلد الأحمر. رأيت الفتاة

الصغيرة وقد وقفت في المطبخ إلى جوار امرأة خمنتُ أنها أمها، كانت امرأة نحيلة، انشغلتْ بإعداد الطعام، وقد أولت ظهرها للنافذة وانساب شعرها الأشقر الطويل مسترسلًا على ظهرها.

أما الجهة الأخرى من المطبخ فكانت صالة واسعة ومفتوحة بها أريكة فسيحة بدت مريحة ومشابهة لتلك الموجودة في صالة بيتي، لكن قماشها لا يزال محتفظًا بلونه الفاتح. وددت لو أناديها وأخبرها بأن أريكتها سوف تتحول قريبًا إلى مساحةٍ غير متناغمة من البقع. أمام الأريكة منضدة مستديرة، تُشبه تمامًا تلك التي رسمت تصميمها بنفسي، وصُنعت خصيصًا من أجلي، لكنها مرتبة بأناقة، مع إناء ممتلئ بالزهور استقر على منتصف سطحها الزجاجي اللامع، الذي يعكس ضوء الشمس كي يغمر عيني ويشوش رؤيتي .

انشغلتُ بهما وتساءلت: هل لديها ابنة أخرى؟ أم إنها أم لطفلة وحيدة؟ كيف ينقضي يومهما؟ هل هناك زوج؟ هل هو غائب؟ مسافر؟ ربما يوليهما ظهره إلى شاشة الحاسوب كي يعمل طوال اليوم؟ فكرت أن بإمكاني أن أتسلى بمراقبتهما من خلف الستائر دون أن تشعر المرأة بوجودي. ربما يمكن أن أجد إلهامًا ما في تلك النافذة للكتابة، أن أجد رواية أحكيها فيها امرأة وطفلة وزوج غائب عن المشهد.

هل تابعت مراقبتهما يومها؟ أم إني تركتهما وغرقت بعيدًا في أفكاري؟ ربما استمرت وقفتي لساعات، ربما تابعت وقفتهما في المطبخ تخلطان مكونات عجينة البيتزا، وتضحكان بينما تفرد الطفلة العجين بأصابعها النحيلة على رخامة المطبخ، وأمها تقف إلى جوارها، تقطع ثمار الطماطم والفلفل والزيتون، وتحاول إقناع صغيرتها العابثة بأن تنثر قطع الخضراوات على سطح العجين بعشوائية، كي تتمكن من إنهاء إعداد الغداء سريعًا، بينما الطفلة تصر على أن ترسم بألوان الخضراوات مدينة، نهرها من مكعبات الطماطم، وأشجارها من شرائح الزيتون، وناسها من مختلف ألوان الجبن وشرائح الفطر الطازج. ربما رأيتها وهي تضع الصينية في الفرن، وترفع يدها لتصفق كفها مع كف الصغيرة، ربما أديتا رقصة ضاحكة خاصة بهما لا يعرف سرها سواهما. ربما خرجت الصغيرة من المطبخ وعادت إلى ألعابها، لتستدير أمها إلى النافذة، ربما كانت تبكي أو ربما لم أرَ ذلك كله. لكني بالتأكيد رأيت تلك الذبابة السوداء التي حطَّت على حافة النافذة، ولم يبدُ على المرأة أنها تراها. وتساءلتُ: لماذا لا يضعون ستائر على نوافذهم كي تمنعني من النظر؟

في الأوقات القصيرة التي كان أبي يخرج فيها من المستشفى لمتابعة العلاج في المنزل، كان الطبيب يطلب مني أن أفتح ستائر غرفته دائمًا كي أسمح لضوء الشمس بالدخول، ولعيني أبي بالتسلل إلى الخارج ومراقبة السماء. أتذكر كيف خلعتُ الستائر الثقيلة التي تشبَّعت طبقات قماشها بالتراب، وفتحت نافذة الغرفة، كي يدخلها ضوء الشمس، ولكي تتمكن أعين الجيران من مراقبتنا بوضوح، مختبئين خلف ستائرهم دون أن يبذلوا جهدًا كبيرًا في سبيل التلصص.

لسنواتٍ عشتُ في هذا الحي ابنة للجميع، الصغيرة الوحيدة التي ماتت أمها في الثامنة، وباع أبوها بيتهم القديم وترك الحي بأكمله وانتقل بها إلى بيتٍ آخر، كي تربيها نساء الشارع الضيق الطيبات، مستسلمات لسطوة الطفلة اليتيمة، ابنة الأرمل الوحيد الوسيم الذي لم يستطع العيش بين جدران بيته بعد وفاة زوجته، فباعه وانتقل إلى حي آخر هربًا من الحزن. أكان الحزن إذن هو ما طارده؟ هذا سؤال آخر رقد أبي قبل أن يتمكن من الإجابة عنه.

الشفقة والحنان في أعين الجارات، والمسحات المتتالية على الرأس لأن المسح على رأس اليتيم بابٌ مفتوح للحسنات، والأطباق متنوعة النقوش والأحجام المتتالية على بيتنا والممتلئة بطعام له أنفاس نساء الجيران، كلها منحتهن الحق في أن يصبحن أمهات لي. حتى النساء الوحيدات اللاتي حاولن دخول بيتنا ورفض أبي وجودهن أكبرنه، لكن لم يُقطعن أيديهن، بل انتقلن بخفةٍ من طابور العاشقات إلى طابور الأمهات.

لسنواتٍ كان لكلٍّ منهن حق في التعليق على طول ملابسي، ومدى اتساعها، ولفة حجابي، وطريقة سيري، وسُمك حاجبيّ، وفيمَ أُنفق مصروفي، وفي أي ساعةٍ أعود إلى البيت. لكن حين سقط أبي ورقد أخيرًا في فراشه، لم تدخل البيت أمٌّ واحدة من عشرات الأمهات، صرتُ وحيدة معه، واكتفت الأمومة الجماعية برقابةٍ بعيدة، للحكم على مدى جودة البِر الذي أقدمه لأبي.

في كل صباح كنتُ أفتح النافذة كي أمنح لضوء الشمس فرصة دخول، ولأعينهم المتربصة مساحة كي تطمئن أن كل الأمور بخير. أن مريضهن الوسيم حليق الذقن، نائم على فراش نظيف، يرتدي ملابس نظيفة بلا أثر للقيء، وأن الغرفة مرتبة، وأنا أجلس إلى جواره بهدوء، أربت يديه، وأتظاهر بالحنان. أُطعمه برفق، وأتحمل ضرباته، وبصقه للطعام على

وجهي، بما يليق بابنةٍ بارةٍ تراقبها عشرات الأمهات، فتطمئن قلوبهن إلى أن الشفقة، ومسحات الرأس، وأطباق الطعام الساخنة التي منحنها لابنة الجار اليتيمة لم تضع هباء.

أتذكر جيدًا المرة الوحيدة التي طرقت فيها إحداهن الباب، كان ذلك في الأشهر الأولى لسقوطه، رحبتُ بها، لكنها رفضت الدخول، قالت إنها جاءت لتنصحني؛ لأن صوتي يعلو أحيانًا، ولأن الغرفة تبدو من النافذة غير مرتبة كما ينبغي. ثم قرَّبت وجهها قليلًا وقطبت حاجبيها وتساءلت عن الرائحة السيئة لشقتنا، أخبرتني بأن عليَّ أن أنظف البيت جيدًا، ورددت بعض الآيات عن بِر الوالدين، ورحلت قبل أن أرد عليها. في الواقع بدا رحيلها مريحًا، فلو كانت استمرت في الوقوف بالباب لما عرفت بِمَ أجيبها. لم تُتح لي أبدًا معرفة الإجابة المناسبة في الوقت المناسب، دائمًا تأتيني الإجابات متأخرة، تحاصرني في الليل وتُخرج لسانها لي، وتعيب على لساني الذي قضمته القطة. وعلى أيِّ حالٍ كيف كان بإمكاني الإجابة؟ وهي لا تعرف سوى ما تُتيح لها النافذة المفتوحة رؤيته.

لا تعرف شيئًا عن الأوقات التي أُغلق فيها النافذة، عن تغيير الحفاضات أو تركيب القسطرة، والأسوأ عن خلعها. لا تعرف ما يحدث حينما يسقط على الأرض، ويرفض أن أنادي أيَّ غريبٍ للمساعدة. ويُصر على أن أحمله وحدي. كأنه هو الآخر ينتظر مني برهانًا أخيرًا على البِر والمحبة.

ما الذي تعرفه الأعين المتلصصة عن البر والمحبة؟ كنتُ أسأل الطبيب عن الإمساك، يقول إنه بسبب قلة الحركة، ويكرر نصائحه حول الملينات والقراصيا والحقنة الشرجية. وخلف النافذة المغلقة لا أحد يعرف أنه لا الملينات ولا القراصيا ولا الحقنة الشرجية صالحة. وأن الأمر الوحيد الذي نفع هو أن أغلق النافذة، ثم أرتدي قفازين، وأدهن طرف إصبعي بالمزلقات، أعتذر لأبي وأنا أقلبه على جانبه وبرفق أدخل إصبعي في شرجه، وأحركه بحركة دائرية بطيئة، ثم أبدأ في إخراج قطع الخراء الصغيرة، قطعة وراء الأخرى، حتى تتكون إلى جواره كومة من الخراء. يعلو صراخه فأعتذر، وأبكي وأعتذر، يبدأ في وصلة من الشتائم والدعاء عليَّ، ثم يسألني عني، أقول له: «أنا هنا»، يقول إنه يريد ابنته كي تنقذه ممَّا أفعله فيه. أقول: «أنا ابنتك». ولا أعرف لماذا يتوقع مني أن أنقذه. كنت أمحو كل شيءٍ قبل أن أفتح النافذة، ألقي بكومة الخراء في القمامة، وأنظف جسده جيدًا بالمطهرات، أغير الملاءات، وأضع له حفاضة نظيفة وأغير بملابسه أخرى نظيفة ومعطرة. لكن الرائحة تلتصق بيدي دائمًا، تذكرني بأني دفعت بأصابعي داخل شرج أبي، ذلك أن ارتداء

القفازات والغسيل بالصابون والماء الساخن، وإغراقها بالكحول والعطور المختلفة، كلها أشياء لم تكن تكفي لإزالة رائحة الخراء عن أطراف أصابعي النحيلة التي ورثتها عنه.
بعد موت أبي اعتقدت أن بإمكاني أن أعيد تشكيل ذاكرتي، أثقبها لتتحول إلى مصفاة، وأرص الثقوب المتجاورة بإحكام، أُسقط منها كل الشوائب، وأُبقي فقط ما أرغب في الاحتفاظ به، أبقيه واضحًا وحادًّا كنصلٍ أسود، كذلك السواد الذي عكر بياض الغرفة الذي بدا يومها لا نهائيًّا لولا تلك الذبابة.
تدهشني الطريقة التي تعمل بها ذاكرتي في بعض الأحيان، غريبٌ ما تختار الاحتفاظ به وما يضيع منها، تتسرب منها أحيانًا ملامحه، وصوته حتى إني أضطر لإعادة الاستماع لشريط كاسيت قديم سجل صوته عليه بالخطأ، وتضيع مني الكثير من ذكريات الأيام الأخيرة كأنها حلم ضبابي غير واضح. لكن هذه الذبابة السوداء بقيت أكثر الذكريات وضوحًا، رغم مرور السنوات. أتذكر وقوفها على طرف إبهام قدم أبي اليمنى وهو راقد. أتذكر لمعة جناحيها الأسودين في ضوء الشمس، أتذكر أني اعتبرتها دليلًا على خيبتي، ألا يتجمع الذباب على الروائح النتنة؟ لم تكن لديه القدرة على تحريك إبهام قدمه، ولم أحاول أن أهشها عنه، انشغلت عن تأوهاته المتكررة بتأمل حركة جناحيها، فكرت ربما لو أن ذلك هو اليوم الأخير، لو أنها جاءت لتشهد على نهاية رقاده الطويل، الذي جاء ليصفق الباب في وجه الليالي المليئة بأسئلة فقدت القدرة على إجابتها قبل أن أجرؤ على طرحها. هل رأت إحدى جاراتنا هذه الذبابة؟ لا أظن، كانت النافذة على اتساعها ضيقة لا تسمح لهن برؤية كل شيء. ولا تشبه بأي حال تلك النافذة التي أجلسني أبي على حافتها وأنا صغيرة في المستشفى.
أذكر كيف كنت أجلس على الحافة العريضة، كنت مطمئنة وذراعه اليسرى تلتف حولي بينما يطعمني بيده الأخرى. وضع في فمي ملعقة من الأرز المخلوط مع الملوخية وقال إن عليه أن يدخل لدقائق كي يطمئن على ماما. وضع الطبق إلى جواري، على الحافة العريضة التي تشبثت بها بقوة، ما زلت أذكر صورة غائمة عن حديقة المستشفى أسفل قدمي المتدليتين. أذكر نبضات قلبي المرتفعة، وأنفاسي التي انحبست، تخيلت أني سوف أسقط، وبقيت أنظر إلى طبق الطعام كي لا أنظر إلى أسفل قدمي، ربما لذلكما زلت أخشى النوافذ المرتفعة. لسنوات شعرت بالنقمة تجاهه، كثيرًا ما سألته كيف يتركني هكذا على حافة النافذة دون قلق؟ وكأني أخفي بهذا السؤال أسئلة أخرى لا يمكنني أن أنطق بها،

كعادته كان يجيد الإجابة، يخبرني بأنها ذكرى زائفة وسخيفة، وأنه لم يتركني وحيدة أبدًا. عدت لأسأله بعدها بسنوات فقال إن نافذة الغرفة كانت في دور أرضي، وإنه لذلك لم يكن قلقًا.

في المرتين كان كاذبًا. فما زلتُ أذكر السلم الذي صعدناه إلى غرفة أمي في اليوم الأخير. كان المصعد يومها معطلًا. وكانت متاعب القلب لديه قد بدأت. أذكر أننا كنَّا نتوقف في كل دور كي يلتقط أنفاسه. أذكر أنني عددتُ مرات توقفنا، وأنا أتقافز على السلالم وأتطلع للوصول إلى غرفتها، حيث تحتفظ لي كل يوم في الدرج المجاور لفراشها بعلب المربى الصغيرة وعلب العصير التي تأتيها مع صينية الإفطار. أذكر أننا توقفنا خمس مرات في خمسة طوابق قبل أن نصل أخيرًا إلى غرفتها، لكن الغرفة كانت خالية، وأمي اختفت كأن لم تكن هنا من قبل، فتحت الدرج المجاور لفراشها فوجدته خاليًا من علب المربى، ومن أدوات زينتها القليلة. وفي منتصف الغرفة كان الفراش مرتبًا ونظيفًا بملاءات بيضاء مكوية. ربما لهذا أكره ترتيب الفراش في الصباح.

كان أبي يحكي تلك الحكاية للجارات فيقول إن إدراكي يسبق سني، وإني أخبرته يومها على الفور بأن أمي ماتت، فيمصمصن الشفاه، وتمسح الكفوف على رأس اليتيمة التي أدركت الموت مبكرًا.

لكن الحكاية في ذاكرتي تختلف، أتذكر كيف أمسك بيدي، وسرنا معًا في أروقة المستشفى، وهو يتظاهر بالبحث عنها في الغرف الخاوية، وفي الممرات البعيدة، وفي حديقة المستشفى حيث أخبرني بأنها ربما تلاعبنا لعبة الاستغماية. أذكر أنه تركني في الحديقة مع إحدى الممرضات، واختفى قليلًا كي يعود لإخباري بأن ماما سافرت للعلاج في الخارج. صدقتُ حكايته، ولسنوات كنت ألوح بقوة لكل طائرة تمر في السماء، عسى أن تراني ماما من النافذة. حتى حين كبرتُ قليلًا وعرفت أنها ماتت، اعتقدتُ أنها سكنت في السحب. ومن يومها أبحث في السحب عن وجوه الراحلين. عندما حكيتُ هذه الحكاية لزوجي كان يندهش ويقول إن الطفل في عمر سبع سنوات أكبر من أن يصدق تلك الخدعة. أرد بأنه أيضًا أصغر من أن يصدق أن تغيب أمه بلا عودة.

في البدايات، وبينما نتبادل الحكايات ونتظاهر بالتعري، اعتاد زوجي أن يسألني عن ماما، عمَّا أذكره عنها، وكيف كانت تبدو. كانت الذكريات غائمة وبعيدة، أحاول أن أشحذها بتأمل ألبوم صور لا يحمل بين صفحاته سوى صور قليلة لماما أغلبها بالأبيض والأسود. وخارج

الألبوم تبدو صورتها في عقلي ضبابية. أحيانًا أتساءل إن كانت ذكرياتي عنها حقيقية؟ هل عشتها بالفعل أم كونتها من حكايات الآخرين؟ أو تحديدًا من حكايات أبي. فبعد أن باع البيت وانتقلنا من حيِّنا القديم إلى المعادي، لم يكن هناك مَن يحكي عنها سواه، وقد شحَّت زيارات مَن بقي من أفراد العائلة بحجة بُعد المسافة عامًا بعد عام، حتى انقطعت الصلات بهم واقتصرت على مكالمات الأعياد.

كنت أرمم ثقوب ذاكرتي بالأسئلة، أسأل أبي فيحكي وأُقارن ما يحكيه بما أذكره، أستبعد منه ما لا يوافق الذكرى، وآخذ ما يرضيني وأُضيفه إلى الصورة. حكاية واحدة فقط احتفظت بها في قلبي، أُغذيها بالذكرى في كل يوم، وأُخفي السؤال عنها حتى أكبر. لكنه سبقني وسقط قبل أن أمتلك الجرأة على السؤال.

الفصل الرابع

في الصباحات التالية منحتني نوافذ الجيران المفتوحة ما أتأمله بدلًا من الجلوس لساعات للتحديق في الشاشة البيضاء لجهاز اللاب توب. أعدت اكتشاف نوافذ شقتي، بعدما اتخذت كل نافذة معنى جديدًا بحسب ما تطل عليه. فالنافذة التي تواجه مكتبي تكشف نافذة غرفة الطفلة وجزءًا من صالة بيتهم المفتوحة على المطبخ، بينما تكشف نافذة صالتي عن الناحية الأخرى من صالتهم ومقدمة الردهة الواصلة بالغرف الداخلية، أما نافذة غرفة نومي فبإمكاني أن أرى منها أغلب مساحة الشرفة الدائرية الواسعة التي تنشر فيها المرأة الملابس المغسولة، وتلعب فيها الطفلة الصغيرة بدرَّاجة يمتزج طلاؤها الوردي القديم ببعض الصدأ، وقد ظهر أيضًا زوج، يجلس في الشرفة أحيانًا للتدخين والقراءة في المساء. كان البيت المقابل أشبه بمرآة مقابلة لبيتي، كأنه يحمل صورته المعكوسة، هل كانت الصورة مغبشة قليلًا؟ أم على العكس كانت أكثر لمعانًا ووضوحًا من الحقيقة؟

كنت أُرمم ما أشاهده عبر النافذة، وأُطعم جوع الحكايات الناقصة بخيال لا يهدأ. لقد كنت دائمًا خبيرة في ترميم الذكريات بالأسئلة، والحكايات بالرؤى، ماغاب عن عيني رمَّمته أذناي ورقَّعه خيالي، وما حاكه الخيال لم يغلبه المنطق.

هكذا كنت أُرمِّم الحكايات الناقصة منذ صغري، وأرتب أحجيات الذاكرة، لكن بقيت حكاية واحدة بدأتها أمي وغفوت في منتصفها، رحلت دون أن تتمها في الليلة التالية، وكل حكايات ما قبل النوم التي تلاها أبي على أُذني لم تفلح في سد فجوة الحكاية الناقصة.

«كان يا ما كان، بنت وحيدة ماشية في الغابة، قابلتها شجرة كبيرة جذعها في الأرض وفرعها في السماء، جذعها كبير كبير، جوَّاها عايشة شجرة تانية جواها شجرة جوة شجرة جوة شجرة. كل شجرة منهم ليها وردتها، شجرة تطلع ورد الفل، وشجرة تطلع زهر الياسمين، وشجرة تطلع بنفسج حلو لكن حزين، والروايح تطلع من الورد تتشبك في بعضها، زي خيوط بَكَرة الصوف ما تعرفيش تفكيها من شجرة لشجرة خيوط وروايح مالهاش أول ولا آخر...»

غريب أمر الروائح، هي أول ما ينفلت من الذاكرة، لكنها حين تعود تجلب معها خيطًا ممتدًّا لا ينتهي من الصور. استيقظت اليوم لأجد الرائحة تهاجم أنفي، رائحة الليلة الأخيرة لأبي، أتذكر كيف تركت الغرفة وقتها لدقائق، غاب صوت تأوهاته، عُدت إليه كي أطمئن،

فوجدته ساكنًا تمامًا، الصدر الذي كان يعلو وينخفض منذ قليل في محاولاته الهشة للتشبث بالقليل من الهواء استراح أخيرًا، وبرودة الوجه التي بدأت منذ الصباح امتدت إلى كامل الجسد، فمه مفتوح ومنه تخرج السوائل، لتمتزج مع سوائل تخرج من الأنف، وتسيل لتغرق الوسادة أسفل رأسه.

أخيرًا ردَّت عمتي على الهاتف الذي تجاهلته لشهور، وكأنها تعلم أنها في تلك المكالمة لن تضطر لتكرار اعتذارها عن عدم الزيارة، قلتُ: بابا مات. بكت ونهنهت وتمخطت حتى إني شعرت بلزوجة المخاط تتسرب إليَّ من سماعة الهاتف. سألتها بحدة كي تكف عن تمثيليتها: ماذا أفعل الآن؟ أخبرتني بأن عليَّ أن أنزع ملابسه سريعًا قبل أن تتخشَّب الجثة، وأن أُغطيه وأُشغل مكيف الهواء حتى الصباح. وأن أغلق عينيه وفمه، أربط فكه جيدًا كي لا ينفتح. ترددتْ قليلًا ثم تساءلتْ بصوتٍ تغلفه الشفقة: «هل ستتمكنين من فعل ذلك وحدكِ أيتها المسكينة؟» أجبتُها بأن المسكينة تخلع ملابسه وتحممه يوميًّا وحدها منذ ثلاث سنوات. ثم إننا لا نملك مكيف هواء، لكن كيف لها أن تعرف وهي التي لم تزُر بيتنا أبدًا.

بدأتُ في خلع ملابسه، كان جسده طيعًا وخفيفًا، قلبتُه بسهولة، وللمرة الأولى منذ أشهر لم يصرخ، لم يسبني أو يدعو عليَّ، أو يتهمني بمحاولة قتله، كان هادئًا تمامًا كدُمية قطنية طيعة. غطيتُ جسدَه وأشعلتُ المراوح، وبقيتُ معه طوال الليل، لم أفكر فيما فعلته، كأنه أمر روتيني، كأننا نقتل آباءنا في كل يوم، جلستُ أقرأ القرآن إلى جواره كابنة بارة حتى النهاية، وهكذا تشبَّع أنفي بالرائحة دون أن أنتبه.

بمجرد طلوع النهار، امتلأ بيتنا الخالي فجأة بالجارات والأقارب، كل مَن اختفى خلال السنوات الثلاث الماضية، حتى مَن ظننت أنهم ماتوا بُعثوا فجأة من رماد غيابهم والتفوا من حولي. وجاء بكاء وعويل الجارات حزينًا وشجيًّا بما يليق بوداع الأرمل المحبوب القديم، وأنا وحدي انشغلت بالرائحة. بعد عودتنا من المقابر سألتُ عمتي: «إلى متى تبقى رائحته في البيت؟» سألتني مستنكرة: «أية رائحة؟» قلت: «رائحة أبي». قالت إني واهمة، وإن رائحة المرحوم كانت مسكًا وعنبرًا، باتت عمتي لأيامٍ ثلاثة ثم رحلت، وتركتني وحدي مع المسك والعنبر.

كانت الرائحة تغيب ثم تعود لزيارتي فجأة بلا موعد، أحيانًا أكون في الشارع حين يلتقطها أنفي بلا مقدمات، أوقف تاكسي وأقفز داخله، أغلق النوافذ وأطلب من السائق أن يفتح

مكيف الهواء، لكن الرائحة تلتصق بأنفي وتعود معي إلى المنزل، أحيانًا تبقى لساعات، وفي أحيانٍ أخرى تبيت ولا تغادر قبل مرور أيام طويلة.

هكذا عادت الرائحة في صباح اليوم، كأن أكثر من عشرين عاما لم تمر، استيقظتُ لأجدها حاضرة، وفيما كنت أسبح بين النوم واليقظة اعتقدتُ أني عدت إلى غرفته، وشعرت ببرودة الجوانب المعدنية للسرير الطبي على كفي، وبرودة وجهه على شفتي، وأنا أُقبل جبهته وخديه وأطلب منه أن يسامحني. فتحتُ عيني لأدرك أني هنا، في بيتٍ آخر وبعيدة كل البعد عن البيت القديم، أخافتني الرائحة، هل عاد الموت من جديد؟ هذه المرة غير مدعو أو محتفى به، هل الصغيرتان بخير؟ مررتُ بغرفتهن كي أطمئن، كانت الغرفة كعادتها ساكنة وهادئة.

ظلت الرائحة حاضرة معي، تطاردني في الحمَّام وأنا أغتسل، وفي المطبخ أثناء إعداد قهوتي، أخذت إبريق القهوة والكوب، وذهبت إلى مكتبي أسفل النافذة، وفتحتها لعل الرائحة تتمكن من الهرب. وجدت النافذة المقابلة مفتوحة كعادتها، أحيانًا أحسد شعورهم بالأمان، أنا التي عشت لسنوات أغلق الأبواب والنوافذ خوفًا من الغرباء، ومن عيون الجيران، ومن اللصوص والشرطة على حدٍّ سواء، أتساءل: ألا تخشى هذه المرأة من أحد؟ صحيح أننا نعيش في حي هادئ، تحيط بنا الأشجار وتخفينا عن اللصوص؟ لكن ماذا عن الشرطة؟ ألا تخاف من الجنود والضباط؟ ألا تخاف من طرقات لا تُشبه الطرقات، من اقتحام يبعثر حياتها ولا يبقي شيئًا في مكانه؟ ألا تخاف من تلصص الجيران؟ أراقب النوافذ من حولنا، كانت جميعها مغلقة ما عدا نافذتينا.

تساءلتُ إن كانت تدرك أني أراقب حياتها؟ ولوهلة فكرتُ في أنها تتعمَّد ترك النافذة مفتوحة، هل ترغب في أن أشهد على حياتها؟ أم ربما تتلصص هي الأخرى على حياتي؟ وجُل قلبي للحظاتٍ، ثم ابتسمت بسخرية اختلطت باللا مبالاة، وأنا أفكر كيف تبدو حياتي من النافذة في عيني المرأة الأخرى، ألا تبدو كحياة خاوية، مكررة الأيام وبلا أية تفاصيل تستدعي الدهشة؟ لكن ماذا لو تسللت الرائحة وهربت من نافذتي؟ هل تتعرف عليها لتدرك أنها رائحة الموت؟ وكيف لي أن أعرف إن كان للموتى جميعًا الرائحة نفسها؟

ربما تفر الرائحة من نافذتي وتعبر الفراغ الصغير بين المنزلين، ربما تسبح في الهواء وتتلفت حولها في قلق فلا تجد مأوى للاختباء من الضياع سوى نافذة البيت المقابل المفتوحة، ستدخل منها وتتجول في البيت حتى تصل إلى باب غرفة النوم الموارب، هل

تغطي هذه المرأة وجهها أثناء النوم أم إنها مثلي تنام بلا غطاء؟ لم أعرف أبدًا، نوافذي لا تكشف هذا الجزء من بيتها لكني حين أغمض عيني يمكنني أن أرى بعيني خيالي كيف تقترب الرائحة من فراشها، ثم تغمز غمزة لعوب قبل أن تتسلل إلى أنفها. هل ستدرك أنها رائحة الموت وتستيقظ فزعة؟ أم إنها مثل عمتي، ستقول: هذا مسك وعنبر؟

أتخيلها وهي تقوم متكاسلة، ربما تقطب جبينها قليلًا، لكنها تقرر أن تتجاهل الرائحة وتذهب لتغتسل. ثم توقظ الصغيرة وتساعدها في ارتداء ملابسها، تُعد إفطارًا سريعًا للزوج أثناء إعدادها لشطائر المدرسة، التي تضعها في صندوق طعام يحمل لونًا ورديًّا. تودعهما بقبلات على الخدين، وتغلق باب الشقة من ورائهما، وتعود إلى المطبخ كي تُعد قهوتها، ثم تذهب للجلوس بتكاسل على كنبة الصالة، تشغل التلفزيون، وتتابع برامج الصباح المملة، وربما يتقافز كلب بني صغير بين قدميها، بينما خيوط أشعة الشمس الرقيقة (لا بد أن تكون رقيقة) تتسلل لتداعب شعرها الأشقر اللامع.

فتحت صفحة (وورد) جديدة على جهاز اللاب توب كي أكتب هذه السطور، ثم توقفت أصابعي عن الدق على لوحة المفاتيح، أعدتُ قراءة ما كتبت، وشعرتُ بالضجر. حين رأيتها في المرة الأولى أملتُ أن تكون حياتها مثيرة، قلتُ أراقبها ربما تصلح كموضوعٍ لروايتي الأولى، إلا أن حياتها لم تحمل شيئًا جديدًا، كانت أيامها في البداية متشابهة كأنها مستنسخة. لكن كل شيءٍ تغير حين سمعت صوت بكاءٍ مكتوم، أشبه بالأنين، يأتي من خلف باب مغلق في الناحية المقابلة من شقتهم، تلك الناحية التي لا تطل نافذتي عليها.

يومها رأيت الطفلة الصغيرة تدق على الباب وتحاول فتحه، وقد بدأت تبكي حتى إن صوت بكائها غطى على صوت الأنين المكتوم، أردتُ أن أناديها، أن أخبرها بأني هنا، أشهد وأرى، لكني لم أعرف اسمها أبدًا كي أتمكن من النداء.

على الأقل ثمَّة باب يُغلق. في بيتي القديم لم تكن ثمَّة أبواب يمكن إغلاقها، كانت ضربات الحزام تشق الهواء عاليًا لتهبط على جسد أمي، ويطولني أحيانًا طرفها؛ لذلك اعتدتُ أن أختبئ أسفل الفراش بمجرد أن ألمح طرف الغضب على وجه أبي.

لكن بابا لم يكن غاضبًا طوال الوقت، ألم يكن يخرج مع ماما أحيانًا لتناول القهوة والآيس كريم، ويعودان وقد تجلل وجهاهما بالبهجة؟ كنت أحكي عنهما حكايات مبتورة، أُرمِّم ما ينقصها بما أراه على شاشة السينما، أقول لزوجي: «كانت قصة حبهما عظيمة، هل تتذكر المطعم الذي يظهر في فيلم آيس كريم في جليم؟ المطعم كان في المعادي في شارع

تسعة،لا.. لم يعُد موجودًا الآن، تحول إلى مكتبة لبيع الكتب، ثم أخيرًا إلى كافيه. تسأل أي كافيه؟ لا أذكر، هو واحد من هذه الكافيهات الكثيرة في شارع تسعة. المهم قبل وفاتها بابا كان يأخذ ماما إلى هناك للعشاء كل يوم خميس، كانت قصة حبهما عظيمة».

كنتُ قد سألت (ماما) أين يخرجان؟ وكل ما قالته إنهما يذهبان إلى المعادي. وأنا رتقت الحكاية بفيلم، فيه مشهد لمطعم، ومشهد آخر في شارع يُشبه شوارع المعادي، وهكذا بنيت حكايتي، أغمضتُ عيني فرأيت ماما تسير هانئة في شوارع المعادي، وهي تجرجر ذيل ضحكتها، وذراع بابا يلتف حول كتفيها، ألا تكفي هذه الصورة كمشهدٍ يليق بقصة حبٍّ عظيمة؟

هكذا فتحتُ قلبي وحكيتُ كما يُطلب منك عادة في البدايات، أن تفتح قلبك وتحكي، لا يراعي أحد أن للذاكرة أحكامها التي لا نملك أن نسائلها، أن هناك أيام خميسٍ أخرى كان بابا يخرج فيها وحده للقاء أصحاب لا نعرفهم. وفي هذه الأيام علينا ألا نُغضب بابا أو نُعكر مزاجه الذي يكلفه الكثير، حين يعود كان عليَّ أن أهدأ وأخفض صوتي تمامًا، ماما أيضًا كانت تحادثني هامسةً، ويصبح صوتها وهي تتكلم معه أرق من المعتاد. أي شيءٍ في هذه الأيام من الممكن أن يُغضب بابا بعد عودته من الخارج، وكل ما يُغضب بابا أو يُعكر مزاجه الغالي يدفعه لأن يخلع حزام بنطلونه. وعلى حسب نوع الغضب ودرجة تعكر مزاج بابا، فأحيانًا يمسك بحلية الحزام المعدنية في كفه ويشق طرف الحزام الجلدي الهواء، لكن في أوقات نادرة قد يتعكر مزاجه جدًّا حتى إنه يمسك بالطرف الجلدي للحزام ليشق الطرف المنتهي بالحلية المعدنية الهواء ويهبط على جسد ماما. أذكر أنه كان حزامًا من الجلد الأسود اللامع، له حلية معدنية فضية على شكل رأس أفعى، كانت تحدق في عيني وتخيفني كلما فتحت باب الدولاب. ما زال بإمكاني أن أسمع صوت الحزام يشق الهواء، وماما التي تعلم أني أخاف من هذا الصوت، كانت تصرخ بصوتٍ أقوى، أعلى من صوت شق الحزام للهواء، وأعلى من صوت ارتطامه بجسدها، وأعلى حتى من صوت تكسُّر الأواني وزجاج أطر اللوحات المعلقة التي تتحطم دون قصد من بابا.

اعتدتُ أن أختبئ أسفل الفراش، أُغمض عيني بإحكام، أضع كفي على أذني كي لا يصلني صراخ ماما ولا صوت الحزام وهو يمزق الهواء من حولنا. لكن في المرة الأخيرة التي اختبأت فيها تحت الفراش، خرجت لأجد رأس ماما ينزف، وبابا يمسك ببرطمان البن يحاول أن يكتم به الجرح، والجرح لا ينكتم. وبابا محتار، يد فيها بن وفي اليد الأخرى

الحزام، لم يتمكن من أن يكتم الجرح بكفٍّ واحدة، وبدا أن الحزام التصق بكفه الأخرى، وكأنه نسي كيف يمكن أن يتركه ليسقط من يده.

انقطعت أفكاري حين رأيت المرأة في النافذة المقابلة تفتح باب غرفتها وتخرج منه، والدماء تلوث ملابسها. رأيتها تحاول أن تهدئ الصغيرة، جلست إلى جوارها على الأرض واحتضنتها، وسمعت صوتها خافتًا، هل كانت تبكي هي الأخرى؟ أم تغني لها؟ رأيت الزوج يخرج من الغرفة، ويده مغطاة بالدماء، رأيته يتجاهلهما ويغيب خلف باب الحمَّام ثم يعود إلى الصالة، يلقي بجسده على الأريكة، ينحني ليدفن وجهه بين كفيه، هل كان يبكي هو الآخر؟ هل يشعر بالذنب؟

لا بد أن يعرف أني هنا، أشهد وأرى، لن أترك الأسئلة هذه المرة بلا إجابة، تعمدتُ أن أفتح النور والستائر وأجلس خلف اللاب توب، كأني مسلح خلف بندقية، رفع رأسه لكن لم يبدُ أنه يلحظني، حتى الصغيرة التي اقتربت منه وحاولت أن تحتضنه لم يلتفت إليها. فتحتُ صفحة (وورد) جديدة، وبدأتُ في الكتابة، أعدتُ ترتيب المشهد، وسمحتُ لعيني خيالي بالقفز داخل النافذة، لم تُبالِ عيني خيالي كثيرًا بالطفلة الباكية، ولم تربت جسدها المهتز، لكنها تسللت خلف الباب المغلق للغرفة التي لا تطالها نوافذي، رأيتهما هناك، المرأة تجلس على الفراش، تبكي وجسدها يرتعش بينما تمسك بين يديها بعدة أوراق، بينها ورقة أشعة سوداء عليها دائرة بيضاء مغبشة، بينما وقف هو كالتمثال، ينفث توتره مع دخان السجائر دون أن يقترب منها.

ربما ارتفع صوته، ربما سمعا دقات الصغيرة المفزوعة، وبكائها وهي تدق على الباب المغلق بينما أخذ هو يدق بقبضته على زجاج المنضدة حتى تهشم وجرح كفه، هل قامت فزعة إليه وحاولت أن تضمد جرحه؟ هل دفعها بعيدًا؟

كانت أصابعي تدق على المفاتيح، أطرح الأسئلة ويفاجئني تدفق الكتابة، أمنح كل منهم اسمًا، وأزيح الرتابة عن القصة، أفكر فِيمَ تقضي هذه المرأة يومها؟ ربما أجعلها تمارس فنًّا ما؛ هل ترسم؟ أم تعزف؟ هل تعزف البيانو مثلًا؟ وما الذي أعرفه عن الرسم والموسيقى؟ ربما تكون كاتبة، نعم هي كاتبة مثلي، هكذا يمكنني الكتابة عمَّا أعرف، هذه هي الرواية الأولى دعنا لا نُعقِّد الأمر كثيرًا ولنكتب عمَّا نعرف. حسنًا هي كاتبة بكل ما لدى الكاتبة من قلق وأسئلة وهواجس، كاتبة وأم، يمكنني حتى أن أصف في عدة فصول معاناة الكاتبة الأم

وأسئلتها، قد يستغرق ذلك فصلًا أو فصلين ويملأ القليل من الصفحات التي يطاردني فراغها، لكن عَمَّ تكتب الكاتبة؟

ربما تتظاهر بالجلوس على أريكتها وهي تراقب النافذة المواجهة لها، نافذة بيت يُشبه بيتها، بيت أكثر فوضى، حيث يمكنها أن ترى ذرات التراب السابحة في ضوء الشمس، وترقب امرأة وحيدة لا تفعل شيئًا في يومها سوى الجلوس على المكتب، خلف لاب توب، تنظر إليها معتقدة أنها لا تلحظ ذلك، تشرب الكثير من القهوة وتدق على الأزرار. امرأة وحيدة لا تخرج من شقتها، ولا تفتح الباب لأحد. لكن أي إثارة في حياة امرأة وحيدة؟ كيف ترتق الكاتبة الوحدة بالحكايات، لتصنع للمرأة الوحيدة زوجًا على سبيل المثال، زوجًا يعود فجأة من الغياب، زوجًا لا يمكنها التعرُّف عليه. ولأنها أم ستجعلها أمًّا أيضًا، ألا يُتيح لها ذلك ملء القليل من الصفحات الفارغة التي تطاردها، وكتابة فصل أو اثنين حول الأمومة ومتاعبها؟ لتجعلها أمًّا لطفلتين، طفلة أنجبتها بالفعل، والأخرى لم تأتِ إلى العالم؛ لأن العالم لا يستحق المزيد من الأطفال. ودعتها وهي صغيرة، صغيرة للغاية ولا يزيد حجمها على حجم ثمرة برقوق.

الفصل الخامس

احتلت النافذة المقابلة دائرة صفراء كبيرة عليها وجه له ابتسامة سمجة تطفح بالسعادة، للحظات لم أفهم ما أراه حتى ارتفعت الدائرة ببطءٍ إلى أعلى، وكشفت عن الطفلة الصغيرة واقفة خلفها تبتسم، ما إن رأت نظرتي المرتبكة حتى قهقهت ضاحكة وسحبت الوجه المبتسم مرة أخرى إلى الأسفل، كي أُدرك أنها تمسك ببالون دائري ضخم منفوخ بالهيليوم على شكل وجه أصفر ضاحك، مربوط في طرف شريط بلاستيكي رفيع وقد عُقد طرفه الآخر حول دائرة معدنية صغيرة مثقوبة من المنتصف، كي لا يطير في الهواء، كانت تمسك الخيط من منتصفه، تطيره من النافذة وما إن يبتعد حتى تشده مرة أخرى، مطمئنة لوجود الثقل المعدني المربوط بطرف الخيط كي يمنع بالونها من الهرب.

تأملتُ كيف تقذف البالون إلى الأعلى ويدها ممسكة بالخيط، وما إن يبتعد عنها الوجه الأصفر المبتسم حتى تشده إليها مرة أخرى وتضحك، ذكرني ما تفعله بمشهد في فيلم كارتون دخلته مع ابنتي في السينما، ربط فيه البطل عشرات بالونات الهيليوم ببيته حتى ارتفع به إلى السماء، أتذكر أنها أرادت في ذلك اليوم شراء الكثير من البالونات الملونة، وقد صدقت أن بإمكانها التحليق والهرب، أتذكر نوبة الغضب والبكاء والصراخ، وكيف استفزت عنادي يومها فرفضتُ أن أشتري لها ولو حتى بالونًا واحدًا.

ولأنه أب مثالي كعادته، أحضر أبوها بعد يومين إلى المنزل أكثر من عشرة بالونات منفوخة وممتلئة بالهيليوم. هكذا كان دائمًا، يمطرها بالبالونات والحلوى، كي يتلقى نصيبًا معلومًا من القُبلات والأحضان، وبعد أن يمتلئ قلبه بالمحبة والرضا، يمكنه أن يغلق عليه باب غرفته ليعمل في هدوء. وكي لا تقتحم الأصوات سكينته كان عليَّ أن أغلق باب غرفة المعيشة وأن أنحبس خلفه مع الصغيرة والبالونات. كنت أحاول أن أكتب، جلستُ يومها أمام صفحة الدفتر الفارغة، أعاند خيالي المعطل، بينما تتراقص أمامي بالونات الهيليوم. وتقاطعني الأسئلة: ماما هل أرسم الطائر باللون الأحمر أم الأخضر؟ ماما أين ينام القمر؟ ماما أريد حضنًا آخر. ماما أريد قطعة شوكولاتة أخرى. ماما تعالي معي إلى الحمَّام. هل يجب أن أغسل يدي؟ ماما هل يكفي الماء أم أغسلها مرة أخرى بالصابون؟ لماذا لا نرى الجراثيم يا ماما؟ ماما هاتي حضن.

كانت تنادي عليَّ، تُمطرني بالأسئلة والطلبات، تتقافز دون توقف. أقول لها: «هُسس ماما تكتب» فلا تتوقف عن القفز والصراخ، أقول: «هُسس بابا نايم»، فتصمت لدقائق ثم سرعان ما تنسى وتعود إلى مرحها. «ألا يمكن أن تعتبريني بابا لدقائق؟» كل ما أردته هو بضع دقائق من الصمت والوحدة، كي أكتب هراء لست أكيدة من قيمته، هل كان هذا الهراء يستحق أن أترك أسئلتها معلقة في الهواء؟ لن أعرف الإجابة أبدًا.

ربما لم يكن هناك ما يستحق سوى حشو معدتها بالطعام الصحي، وحشو عقلها بحروف الأبجدية والأرقام، وتنظيف المنزل من التراب والفتافيت كل ساعتين. هل كان ذلك ليضمن لها حياة أفضل؟ هل كان بإمكاني أن أختار لها أمًّا أخرى؟ أمًّا بلا هزائم، بلا ذنوب، ولا موتى تجرجرهم وراءها. بلا تاريخ وراثي لأمراض القلب والسرطان، وربما بذكاء أعلى وحساسية أقل، لديها إجابات عن الأسئلة، وتجيد الرسم وترتيب المنزل، تورثها شَعرًا أنعم، ومسام بشرةٍ أضيق وميولًا انتحارية أقل. وتقضي الوقت في إعداد الحلوى الصحية واللعب بالبالونات الملونة بدلًا من التفكير في الكتابة، وقضاء الساعات غائبة بعيدًا في أحلام يقظتها.

يومها كنت أحاول أن أكتب، والبالونات تتراقص من حولي، وابنتي التي أخفت وجهها خلف بالون ضخم على شكل وجه مهرج ضاحك ألقت بثقلها على جسدي ولفَّت ذراعها بقوة حول رقبتي وكررت: «ماما هاتي حضن».

كانت الكلمات محشورة في رأسي، كل ما أرغب فيه هو أن تخرج على الورق، بدا وجه المهرج مخيفًا، وبدا ذراع الصغيرة الهش الملتف حول رقبتي كفًّا ضخمة تحاول أن تخنقني. جذبتُ ذراعها بعيدًا بقوة، فتحتُ أحد الأدراج المجاورة وتناولتُ منه مقصًّا، قبل أن تنتبه قصصتُ الأثقال المعدنية الصغيرة الموجودة في أطراف الشرائط، أخرجتها من النافذة وقبل أن تفهم فتحت كفي وأطلقت البالونات، واحدًا إثر الآخر، اقتربت الصغيرة من النافذة، نظرتْ إلى السماء تتأمل بالوناتها، وبدت كأنها تنتظر عودتهم، ظلت نظراتها تتقلب حائرة بيني وبين النافذة لثوانٍ قليلة، وحين اختفت البالونات تمامًا بدأتْ في وصلة من البكاء.

عندما لمست الأرض بقدمي بعد ولادتها كنتُ أُشبه بالون هيليوم تخفَّف من الثقل الذي يربطه بالأرض، كدت أفقد توازني عندما حاولت القيام للمرة الأولى، أربكتني خفة الجسد وقد تخلَّص من الثقل الذي اعتاد موازنته، بعد شهور طويلة اعتدت فيها على السير ببطن

ممتلئ يشدني إلى الأرض، تشبثتُ بذراع زوجي، همستُ أني سأطير، فظن أني سأطير من السعادة، أغلقتُ فمي وابتلعت ارتباكي. لأيام كثيرة شعرت بأن نسبة الجاذبية في الأرض تحت قدمي قد اختلت، بل وأظن أنها لم تعُد أبدًا كما كانت، غير أني انشغلت عنها؛ بامتلاء الثدي، وألم الرضاعة، ومدى كثافة الحليب. بلون البراز في الحفاضات، ونوبات المغص، وبالونات الهيليوم.

هل اختبأتُ منها بعد أن طارت البالونات؟ كانت تحب لعبة الاختباء تلك، ولم تكف عن البكاء حتى قلتُ إننا سنلعب الاستغماية، ووعدت أن أحضر بالونات جديدة أجمل وأكثر من البالونات التي تركتنا ورحلت. هدأت قليلًا ومدت يدها كي تتناول مني منديلًا مسحت به عينيها وأنفها، ابتسمتُ لها وأدرتُ وجهها إلى الحائط وطلبتُ منها أن تعُد. بدأت العد: «عشرة، عشرين». قاطعتها وقلت: «لا، واحد، اثنان، ثلاثة ، أربعة... حتى مائة». نظرتْ إليَّ متشككةً قليلًا، لكنها ابتسمت قبل أن تدير وجهها إلى الحائط مجددًا وتبدأ في العد. تركتها هناك وأخذت دفتري، أغلقت باب الحمَّام من خلفي، وحاولت أن أتابع الكتابة في الحمَّام، لا أعرف ما هو الرقم الذي انتهت عنده من العد، لكنها عادت للبكاء من جديد، ومن خلف باب الحمَّام كان صراخها لا يتوقف.

في أيامه الأخيرة في المنزل كان صراخ أبي أيضًا لا يتوقف، ولم يكن بإمكاني أن أختبئ، فكنت أخبئه هو، أتركه وحيدًا خلف الباب المغلق. الأطباء يقولون إنها مسألة أيام، والأيام تمتد، وتطول وتلتحم بأيام غيرها لتصبح شهورًا لا أذكر عددها. صراخه يعلو ولا شيء يُجدي، أحقن المسكن في المحلول المعلق على العمود المعدني إلى جواره، أراقب جريان السائل الشفاف في الأنبوب المطاطي الذي يتلوى كالثعبان حتى ينتهي طرفه بإبرة مغروزة في أعلى ذراعه وأنتظر أن يهدأ قليلًا. لكنه لا يهدأ، يصيح ويصرخ بشكل متواصل، أسأله: «ما الذي يؤلمك؟» يقول: «كل شيء». أزيد من جرعة المسكن لكنه لا يتوقف عن الصياح أعود لسؤاله: «ما الذي يؤلمك؟» فيقول: «لا شيء»، لكنه يستمر في الصراخ والتأوه.

يمتلئ قلبي بالغضب، أتركه وأذهب للنوم، يصلني الصياح المستمر فأعجز عن النوم، أعود وأسأله: «لماذا لا تنام؟» يسألني: «مَن أنتِ؟» لا أجيب سؤاله، لكني أغلق عليه الباب، وأغلق باب غرفتي كي لا يصلني صوت صراخه، وكل ما أتمناه هو القليل من النوم، القليل فقط كي أتمكن من مواصلة يوم آخر.

كالمصفاة تعمل ذاكرتي، تُسقط الليالي القليلة الهادئة، وتُبقي ليالي المستشفى التي قضيتها بلا نوم، حيث الليل يتصل بالنهار بلا فواصل، أتذكر كيف كنت أحاول أن أمسك بيده كي لا يخلع إبرة الكانيولا، لكن كفه تنفلت مني، أمسكها قبل أن تصل إلى كفه الأخرى، يتكرر الأمر مرة تلو الأخرى حتى أتعب، أهمس له: «كفاية». يغضب ويحاول أن يحرك ذراعيه، أنظر إلى باب الغرفة كي أتأكد من انغلاقه علينا، من أن أحدًا من الأطباء والممرضين لن يسمعنا، وأصيح بصوتٍ أعلى: «كفاية».

أشعر بكفي وهما يعتصران معصميه، أحاول أن أرخي قبضتي كي لا يتألم أكثر، لكن شيئًا ما بداخلي يجعلني أقبض على معصميه بقوةٍ أكبر ممَّا يحتاج الأمر، أضغط أكثر دون أن أشعر، تغيب عني الغرفة وجدرانها البيضاء، أطبق على معصميه وكأنني أطبق على رقبة الأفعى، تلك التي اعتادت أن تخيفني بنظراتها في دولابه، أغيب حتى يعيدني ارتفاع صوته بالصياح. أنتبه وأخفف قبضتي، فيرفع كفي إلى فمه بالقليل الباقي من قوته كي يعضها، أترك له كفي، تنغرس أسنانه فيها حتى يتسرب الغضب مع الألم، يُفلت يدي أخيرًا، أتأمل آثار أسنانه على كفي وأتساءل: هل تجعلني ابنة أفضل؟ هل تمحو ذنوبي؟

يخلع إبرة الكانيولا مجددًا، وقد امتلأ ذراعاه وكفاه بالكدمات البنفسجية الواسعة، أضغط على الزر، يأتي إليَّ الممرض، ويقول بنفاد صبر إنها المرة الخامسة هذه الليلة. أود أن أطلب منه أن يربط ذراعيه إلى جوانب السرير المعدنية كي لا يخلعها لكني أخجل، أشعر بأن واجبي بشكلٍ ما كابنة بارة هو أن أحافظ على إبرة الكانيولا مغروزة في ذراعه دون أن يلجأ أحد إلى تقييده، كأن تلك هي شهادة جودة البنوة.

لقد ظلت الكدمات الزرقاء تفترش ذراعيه عندما مات، تقول عمتي إن وجهه عاد أبيض كالملاك بلا شائبة. وددت لو انتظرتُ قليلًا حتى تشفى كدمات ذراعيه، تساءلت: لماذا يتعجَّل أهل الميت إجراءات الغُسل والدفن؟ وكأنما يخشون أن يستيقظ ميتهم من جديد! أردت أن يرحل بجسد بلا شوائب، قبل اليوم الأخير حلقت ذقنه وتركته ناعمًا، خلعت ملابسه، احتملت ضرباته وأنا أنظف جسده جيدًا، راعيت الثنيات وأسفل الإبطين، وحلقت الشعر الزائد عن عانته وأسفل إبطيه. ووضعت له ملابس نظيفة. هل كان عليَّ أن أنتظر حتى تشفى كدماته؟ هل تعجلت؟

بعد أن رحل كنتُ أبحث عن أثر عضته على كفي، لكنه سرعان ما اختفى، كنت أتساءل عن كدماته، هل شفيت بعد دفنه؟ هل يشفى الجسد بعد الموت؟ أم نحتفظ بكل الجروح التي

لم تمهلنا الحياة وقتًا كافيًا لالتئامها؟ كانت الأسئلة تعلق حول رأسي، وترتفع مثل البالونات، مثل تلك الابتسامة الصفراء الضخمة في النافذة المقابلة. التفت إليها مجددًا، هذه المرة كانت الأم تقف إلى جوار طفلتها وفي يدها مقص، ورأيت الدائرة الصفراء الكبيرة تطير إلى السماء حاملة ابتسامتها، كانت الطفلة صامتة تتأمل تحرُّر البالون، في كفها لا يزال نصف الخيط المربوط في الثقل المعدني، أما أمها فقد تراجعت للوراء بخطوات بطيئة، ثم أغلقت عليها باب غرفة لا يمكنني رؤية ما خلفه، واستدارت ابنتها إلى الحائط.

يأتيني صوت الصغيرة تعُد: «عشرة، عشرين، ثلاثين». هل هذا دوري لأختبئ؟ حسنًا، أنا أجيد الاختباء. أجري بخطوات مسموعة نحو الصالة وأترك نعلي المنزلي ظاهرًا أسفل الستارة كي أُضللها، ثم أتحرك دون صوت حتى أصل إلى غرفة النوم، وأختبئ أسفل أكوام الغسيل المتروكة على الفراش دون أن يطويها أحد. أخفي جسدي جيدًا ثم ألبث صامتة في الظلام. يأتيني صوتها : «أربعين، خمسين، ستين». أنا أجيد الاختباء منذ صغري، يمكنني التحول إلى حرباء صامتة، أذوب بين الجموع دون أن يلحظني أحد. «سبعين، ثمانين، تسعين» هاه؟ دورك يا صغيرة، ماذا ورثتِ مني؟ أكتم أنفاسي كي لا تسمعها، وأستسلم للقليل من الراحة، أتخيلها تبحث عني في كل مكان، ولا تفكر أبدًا أني هنا، تبحث في أركان البيت المظلمة، خلف الأريكة، أسفل كومة من أوراق النباتات المنزلية المتساقطة، ولا تتمكن من الوصول إلى مكاني. يمكنني أن أرتاح هنا قليلًا، عارفةً أنها لن تستسلم، هذا العناد الذي أعرف من أين ورثته يمنحني فرصة لقيلولة قصيرة.

في المنام رأيت أن لي طفلتين، ابنتي وصغيرة أخرى، تحمل نفس الملامح لكن بعينين أكثر اتساعا، ضحكتْ لي ومدت ذراعيها كي تحتضنني فوجدت بدلا من كفيها مخالب فأر، كنت أبتعد إلى الوراء وأرى جسدها وجلدها يتبدل بفراء الحيوان القصير، وأطرافها الأربعة تتقلص كي يتحول جسدها إلى جسد فأر ضخم يقترب مني ويطاردني، وصوتها يردد هاتي حضن، خطوتُ إلى الخلف حتى التصق ظهري بالجدار فقفزت لمهاجمتي.

استيقظتُ فزعة لأجد الصغيرة تتقافز على جسدي وهي تصيح : «ماما، لقيتك». بقيتُ ذاهلةً لثوانٍ وهي تنثر قطع الغسيل حولها بفرح وتردد: «أنا كسبت، أنا كسبت، دورك جاء، هيا قولي خلاويص».

قلتُ لها: «ماما عندها صداع».

لكنها صاحت متذمرة: «لا ماما ستلعب خلاويص».

قمت مستسلمة وأدرتُ وجهي إلى الجدار وأنا أعد بلا حماس، وأسأل: «خلاويص؟» وحين غاب صوتها أخيرًا، استدرت وتظاهرتُ بأني أبحث عنها. عرفت أنها تختبئ أسفل مكتب أبيها، تحب المساحة الواسعة أسفله، تقول إنه قصرها، وإن أرجله عواميد. أحيانًا كنت أجلس إلى جوارها أسفل المكتب، وأتحسس النقوش المنمقة على أرجله، وأنا أفكر في طريقة أفضل لتنظيف الأتربة التي تتراكم بين نتوءاتها كل يوم. كانت تردد الحكاية التي لقنها لها أبوها، عن إنه مكتب المرحوم جدها، خشبه من الماهوجني، ومقابض أدراجه من النحاس، وإنه مكتب يليق بقصر.

أفكر في أنه يليق بقصرٍ فعلًا، ذلك ما يجعل حكايته مثقوبة تمامًا كوجه حذائه الذي أخفاه عن العيون في الركض السريع، لم يكن المكتب متماشيًا مع شقة أبيه المتواضعة التي زرتها قبل أن نتزوج، ربما اشتراه من سوق الأنتيكات ليرمم سوأة الحكاية قبل صبها في أذني ابنته. كما أنه بالتأكيد لم يكن يليق بشقتنا الصغيرة، كنت أكره الأثاث الكلاسيكي القديم، أكره اللون البني، والخطوط المعقدة، والنقوش الغائرة التي تراكم التراب.

تجاهلت المكتب ولم أنظر تجاهه كي لا أراها، وتظاهرتُ بالبحث عنها وأنا أتنقل بين الغرف الأخرى وأرفع صوتي بالسؤال عن مكان صغيرتي الشقية. ثم اتجهت إلى المطبخ، لأُعد فنجانًا من القهوة، ولم يفتني أن أرفع صوتي من آنٍ لآخر متظاهرة بالبحث عنها، فكرتُ في أن هذه هي الطريقة الأفضل، أن تختبئ هي بدلًا من أن أختبئ أنا، هكذا لا فرصة لها في أن تجدني، والأكيد أنها لن تستسلم وتكشف لي عن مكانها، أعرف أنها عنيدة، تتلذذ بحيرتي في البحث عنها، و إحساسها بأنها الأقوى، هذه الرغبة في السيطرة بالتأكيد ورثتها من أبيها.

صببت القهوة ورفعت صوتي بالسؤال عن العصفورة الصغيرة: «ألاقيها في المطبخ؟» أخذت فنجاني إلى الصالة، وتساءلت بصوتٍ مرتفعٍ كي يصلها: «ألاقيها في الصالة؟» ثم جلست كي أشرب القهوة وأستمتع بلحظات الهدوء القليلة. حاولت أن أتجاهل الحلم الذي رأيته، لكن وجه الصغيرة المختلط بملامح الفأر لم يفارقني، أتذكر حملي الأول، امتنعت وقتها عن الكحول والقهوة والسجائر، وحتى الشوكولاتة طوال فترة الحمل. غرقت في كتب وأدلة العناية بالأطفال، تناولت طعامًا صحيًّا وفيتامينات، وتابعت زيارة الأطباء أسبوعيًّا. راقبت نموها على شاشاتهم منذ كانت بحجم ثمرة توت صغيرة، ثم ثمرة فراولة، ثم ثمرة

برقوق، وحتى أصبحت بحجم بطيخة كاملة تملأ بطني، وتثقل على أسفل ظهري وركبتي. لكن في نهاية الأمر كل هذه الأشياء لم تنجح في جعلي أمًّا أفضل، لم تجعلني أمًّا على الإطلاق، هل هناك أم لا تتمكن من حب ابنتها؟

حين رأيت ابنتي للمرة الأولى لم أتمكن من حبها، لم أشعر بشيء، مجرد مشاعر محايدة تجاه دمية صغيرة هشة تحرك كفيها بين ذراعي. حاولتُ أن أبتسم لها، أن أبحث داخلي عن هذه الرابطة الأمومية التي قرأت عنها في الكتب، أن أبحث عن الحب الأمومي الغامر الذي قالوا إنه سينفجر في قلبي بمجرد رؤيتها، لكني لم أجد في قلبي حبًّا ولا يحزنون. سيطر عليَّ فقط شعورٌ بالتعب والإجهاد، أنها لا تنتمي لي، أني اضطررت لأن أُسكن في جسدي جسدًا تخلى عني بمجرد نموه، كنت أنظر لها وهي تكبر وترغب في أن تجري بعيدًا عني، وأفكر دائمًا في أنها ستكبر أكثر وتتخلى عني مرة أخرى، ستهجرني إلى المدرسة، ثم إلى الجامعة، ستهجرني إلى رجل تحبه، وربما إلى بلد آخر، كي أتعفن وحدي في النهاية. ورغم ذلك كنتُ مضطرة لأن ألقمها ثديي، وأن أهجر النوم من أجل تغيير الحفاضات، وأن أتعايش مع صراخها الذي لا يهدأ، وأن أترك الكحول والقهوة والشوكولاتة والسجائر والأطعمة الحارة حتى لا تتسرب لها في الحليب، وأن أترك الكتابة كي ألعب بمكعبات الليجو.

ألقيت بفنجان القهوة الفارغ في حوض المطبخ. فتحت سلة المهملات ومددت يدي لألتقط اختبار الحمل المختبئ أسفل القمامة، لا يزال الخطان هنا. تفاجأت لوهلة، كأني توقعت أن يختفيا مثلًا بعد مرور عدة ساعات، ألقيته بالمهملات مرة أخرى وغسلت يدي جيدًا، ثم ذهبت إلى أسفل المكتب حيث اختبأت الصغيرة، يكفيني هذا القدر من الهدوء، حان وقت إيجادها.

تحت المكتب وجدتها مستلقية على وجهها، اقتربت منها بقلق، لأجدها نائمة. حملتها بين ذراعي برفق، ووضعتها في فراشها، تململتْ قليلًا وفتحتْ عينيها لتسألني: «لقيتيني؟» قلت لها: «لقيتك». فعادت للنوم مطمئنة.

الفصل السادس

الغُميضة أو الاستغماية هي اللعبة المفضلة للأطفال دائمًا، لكنها لعبة آمنة فقط إذا لعبوا داخل حدود البيت. لا يمكنهم أن يلعبوها خارج جدرانه، لا في النادي ولا في الحديقة وبالتأكيد ليس في الشارع. لنفرض على سبيل المثال أن طفلك اختبأ خلف شجرة، هناك احتمال كبير أن تذهب هناك ولا تجده؛ قد يُختطف، أو يُجرح ذراعه، أو يتوه، أو يجري بعيدًا فيسقط في بالوعة أو تخبطه سيارة، أو يتحرش به أحدهم، أو يعضه كلب ضال، أو تخمش ساقه قطة، أو يضايقه طفل آخر يختبئ خلف الشجرة نفسها. لهذا تُلعب الاستغماية في البيت فقط، البيوت آمنة، الشوارع لا.

وشوارع المعادي لم تكن آمنة بالتأكيد، كانت هادئة ومظلمة، تصطف على جانبيها أشجار متشابكة بلا نهاية، حيث يمكن أن تخفي خلفها كل أنواع الخطر، لصوص ومتحرشين وكلاب ضالة. لهذا لم يسمح لي أبي أبدًا بالخروج للعب الاستغماية، أو حتى بالسير وحدي، عشت هناك لسنوات لكني كنت أتوه كلما خرجتُ عن طريقي المحفوظ بين البيت والمدرسة.

أبي كان يحفظ شوارع المعادي مثل كف يده، أسأله عن شارع، أو متجر، أو حتى شجرة، فيبسط كفه اليسرى أمام وجهي، وبسبابة كفه اليمنى يبدأ في رسم الطريق، وترتسم الشوارع أمامي فسيحة وهادئة، أخطو فيها وكأنني أخطو على كفه. قبل أن يموت بساعات أمسكتُ كفه، كنت أحاول أن ألتقط منه شوارع المعادي وأشجارها، لكنها انفلتت وسقطت بيننا على الأرض.

اكتفيتُ بالطرق القليلة التي أعرفها بالمسطرة، أحفظها عن ظهر قلب، فإذا حدث أن أخطأت في شارع واحد أو منحنى أضيع وأفقد الطريق، وأبدأ في سؤال الناس من حولي، أبتعد عن الباعة الذين ربما جاءوا للعمل من مناطق أخرى، فهم مثلي يحفظون فقط الطريق من البيت إلى العمل، أروح دائمًا لكبار السن، سكان المعادي القدامى، لهم سمت تعرفه بمجرد النظر.

لم يكن أبي من سكان المعادي القدامى، هؤلاء الذين يتحدثون عنها بانتماء متعصب، كأنها مدينة أخرى داخل القاهرة، ورغم أننا لم ننتقل للسكن فيها قبل موت أمي في منتصف التسعينيات، إلا أنه كان يتحدث عن شوارعها وحكاياتها كواحد من أهلها القدامى، يحكي عن حقل الذرة الذي كان بجوار شريط المترو قبل بناء الكوبري الذي يصل ناحيتنا بناحية

شارع تسعة، وعن الترعة التي رُدمت فتحولت إلى شارع يزحم الباعة جانبيه. يحكي بثقة شاهد العيان، ويتلون صوته فينتقل السحر لسامعيه. أذكر كيف كان يتلاعب بذاكرتهم، يستغرقون في حكاياته وينسون أنه أتى إلى المعادي بعد أن رُدمت الترعة وشق المترو طريقه، وانقلب حقل الذرة إلى أسفلت لم ترَ عيناه غيره، وينقلبون إلى تلاميذ في حضرته.

كنت أراقب نبرة صوته، وتبدل إشارات أصابعه النحيلة وهو يحكي، ويرتق الحكايات بالسخرية والضحك، كي لا ينتبه السامع إلى انعدام اليقين. ترفعه النشوة على صهوة الثقة، فتمتد حكاياته بعيدًا في الزمن حتى تصل إلى عهد الخديوِ، يحكي حتى أكاد أرى الجند والخيول من حولي في الأزقة الضيقة التي تحيط بالسوق القديم، ويحمل الحجر والشجر معاني وأسرارًا غير تلك التي أعرفها في مروري اليومي في طريقي إلى المدرسة.

نسير إلى جوار الشجر، يتحسس جذوعها ويعلمني الأسماء، هذه كازورينا، وهذه بوانسيانا، وهناك شجرة ذقن الباشا، وعند النادي شجر الجميز. يحفظ أسماء الأشجار جيدًا، لكنه مثلي لا يملك سوى كفين رماديتين لا تجيدان الزراعة، أتذكر كيف أصابته أزمة القلب ذات مرة واستند إلى جذع شجرة عجوز، كنت طفلة صغيرة، وتساءلت وقتها: هل تخذله الشجرة؟ هل تتركه كي يسقط؟

كبرت وظل مشهد الشجرة القادرة على السير يداعب خيالي، على كل حال أشجار المعادي لم تملك القدرة على السير، لكن الكثير منها اختفى رغم ذلك، وصرت أسير في منتصف الطريق، تحت الشمس، وكأن الأشجار تعاقبني وتحرمني من ظلها.

سقط أبي وحده، لم تُسقطه شجرة، سقط وسقطت معه الأسئلة بالتقادم، والذنوب التي حملتها كفه التقطتها كفي، كي أحمل ميراث الهزائم تامًّا وبلا نقصان. لكني لم أكن زرقاء اليمامة كي أخبر أحدًا بأن الشجر يتحرك. ولو أخبرتهم فهل يصدقني أحد؟ هكذا كنت أصمت دائمًا، وأخفي أشجاري في قلبي، كي أحمي عيني من العمى.

تؤلمني عيني، يرهقني الجلوس الطويل أمام شاشة اللاب توب، والرواية لا تريد أن تنتهي، ضغطتُ على إعدادات ملف (الوورد) لكي أحسب عدد الكلمات التي أضفتها اليوم، أضفت ثلاثمائة كلمة، وحذفت خمسمائة، لا بأس.

نظرت إلى النافذة المقابلة، لم أتمكن من رؤية أحد، لن يفوتني شيء إذا قمت، أخذتُ فنجاني وقمت إلى المطبخ لأعد كوبًا آخر من القهوة. خطوت خطوتين وفي الثالثة انغرس شيء حاد في كعبي، نظرتُ إلى الأسفل لأجد عشرات من قطع الليجو الصغيرة المتناثرة على

الأرض. كانت تتناثر دائمًا في كل مكان في البيت، تشبه الخوازيق الصغيرة وتفاجئ قدميَّ العاريتين في كل خطوة. ألم أخبرهما من قبل بأن عليهما جمع القطع بعد الانتهاء من اللعب؟ ناديتهما فلم يُجب أحد، رفعتُ صوتي وناديتُ مرة أخرى، ولا إجابة. رفعت صوتي لأخبرهما عمَّا أنوي فعله بهما. قُلت إني سأمسك الكبرى من كتفيها، سأهزها بقوة حتى تصرخ من الألم، سأخبرها بأن عليها أن تجمع هذه القطع كلها، وحين تبكي ولا ترد، سوف أحملها من ذراعيها، وأقذف بجسدها الصغير على الفراش، سوف يصطدم رأسها بإطار السرير الخشبي، هل هذه دماء؟ سأتأمل جسدها المرتجف، وأسأل نفسي: ما الذي فعلت؟ أجلس إلى جوارها، وأحتضنها، وأبكي معها، وأعدها بأني لن أكرر ما فعلته مرة أخرى.

انحنيت على الأرض وركعت على ركبتي لأجمع قطع الليجو في الصندوق. وحين قُمت والتفت إلى النافذة كانت هناك، المرأة في النافذة المقابلة، تقف وحيدة دون طفلتها. هذه المرة كانت تنظر إلي نافذتي، نظرت إليها، فلم تُدِر وجهها عني، بل نظرت في عيني مباشرة بلا وجل. هل تعرف إذن أني أراقبها؟ أم إنها هي مَن تراقبني الآن؟ شعرتُ بمزيج من الغضب والخجل، فأغلقت النافذة بعنف، كانت تلك هي المرة الأولى التي أغلق فيها النافذة منذ انتقلت إلى هذه الشقة. استدرتُ، ناديتُ مرة أخرى، ولمَّا لم يُجب أحد، أمسكتُ بصندوق المكعبات ونثرت قطع الليجو على الأرض، ربما تعودان لجمعها في الصندوق.

كان صندوقًا من البلاستيك الشفاف الكبير،لا يشبه صندوق أمي. هذا الذي لم يكن صندوقًا بالمعنى الحرفي للكلمة، كان علبة مستديرة من الصفيح، زرقاء اللون وعليها رسم مبهج لعربة تجرها الخيول، مع أمير وأميرة يرتديان ملابس مبهرجة. وداخل العلبة، توجد أزرار ملونة، وكروت بريد من بلاد مختلفة عليها طبقة من البلاستيك الشفاف المتعرج، أسفله يمكنك أن ترى صورًا تتقلب وتختلف بتغير الاتجاه الذي تنظر إليها منه.

في العلبة أيضًا قصاصات من ورق مصفر اللون أطرافه متآكلة تحمل كتابة لم أتمكن من قراءتها بحروف عربية وإنجليزية، عُملات معدنية قديمة من بلاد مختلفة، وصور بالأبيض والأسود لأمي وحدها، أو لأمي مع أبي على شواطئ لم أعرفها، وخرز ملون، وأقراط من الفضة بفصوص صغيرة زرقاء.

كنت أختبئ أسفل الفراش وأفحص محتويات الصندوق، أقضي الساعات في تأمله، هل سحبني الصندوق إلى داخله؟ هل تحولت إلى زر صغير مكسور؟ أو ربما خرزة ملونة؟ أو فردة قرط وحيدة بفص أزرق لامع؟ ربما لهذا لم أخرج من هناك بمجرد أن توقفت

صرخات أمي وتحولت إلى أنين مكتوم؟ بقيتُ وقتًا طويلًا أطول ممَّا ينبغي مختبئة أخشى الخروج، وحين خرجت كانت ماما هناك، جالسة في ركن الغرفة والدماء تنزف من رأسها، وبابا واقف يحاول أن يكتم الجرح بالبن بيدٍ واحدة، والحزام في يده الأخرى. وماما تبتسم لي وتُخبرني بألا أخاف، وبأنها فقط سقطت وجُرح رأسها، وبابا لا ذنب له. كانت تردد أن بابا لا ذنب له دون حتى أن أتهمه بشيء، بابا لا ذنب له. ذنب مَن كان إذن؟

الفصل السابع

«سيقتلكِ الشعور بالذنب» قالها زوجي بيقين، قبل أن يوليني ظهره إلى النافذة ويُشعل سيجارة، نفخ عدة أنفاس، ثم استدار لي وهز رأسه بعنف وأخبرني بأنه لا يوافق. ابتسمت رغمًا عني، فقد فات الأوان، جسدي الآن قبر يُطبق على جثة صغيرة لن تولد أبدًا.

كان قد تعجل بمجرد أن شاهد السونار في إخبار الصغيرة بأن لها أخًا أو أختًا في الطريق. أتذكر كيف وضعت يدها على فمها وضحكت، ثم اقتربت مني لتتحسس بطني بسعادة، قبَّلتني وقالت إنها بنت. تذكرتُ الحلم، والطفلة الصغيرة التي تحمل ملامح فأر، ربت كتفيها وقلت إنها بنت فعلًا.

ضحك قائلًا إنه يريد صبيًّا هذه المرة، أما الصغيرة فقد ظلت تتقافز فرحة وهي تردد: «بنت، بنت». تركتهما سويًّا وانسحبتُ إلى غرفتي شاردة، لحق بي وأغلق الباب من خلفه. كان سعيدًا في البداية، وحين أخبرته بقراري، رفض وجلس يحدثني عن الذنب.

لم أخبره لحظتها بأني بدأت منذ يومين في تناول الحبوب البيضاء الصغيرة، حبة إثر أخرى، وكل ما أنتظره هو بقع الدماء التي ستُخبرني بأن الأمر قد انتهى. جلس إلى جواري يتأمل الأوراق والتحاليل الطبية، أشار إلى صورة السونار المطبوعة وابتسم، أخبرني بأنها أصبحت بحجم حبة البرقوق.

كيف أخبره بأن الزمن لا يعود للوراء، وكل محاولاتنا لإعادة سرد الحكاية لا تفلح في سد ثغراتها، إنني لن أسمح لحبة برقوق صغيرة بأن تفسد حياتي التي بدأت استعادتها بالكاد.

قلت إني لن أنجب أطفالًا هنا، وإن مَن يريد الأطفال عليه أن يخرجهم أولًا من هذا البلد، إن التخلي عنها بطولة لا ذنب، إني مثل أم موسى، أرغب في إنقاذ طفلتي، ألقيها في اليم كي لا تقع فريسة بين كفوف جنود الفرعون. ظل يردد أنه سيساعدني في العناية بها، وأن هذه المرة ستختلف، سيحممها ويغير الحفاضات، وربما حتى يرضعها. لم تضحكني عبارته الأخيرة، أردت منه أن يصمت؛ لذلك قررتُ أن أخبره بأن الأمر انتهى، أنها أصبحت مشوهة ولا أمل في إنجابها.

لم يفهم في البداية، أخبرته بأني أتناول حبوب الإجهاض منذ أيام، أنها بالتأكيد ميتة الآن، وإن كانت ما زالت حية فقد تشوهت، ستولد بأطراف تُشبه مخالب الفأر، أخبرته بأنه

يتحدث الآن مع قبر، مع امرأة قتلت طفلتها وتحمل جثتها في الداخل، وأن كل ما أريده هو أن يساعدني في الخلاص من بقاياها، حتى القطط تأكل صغارها أحيانًا لتنقذهم.

في ذلك الصباح كانت الصغيرة قد استيقظت وقررت أنها قطة، تزحف على أربع، تموء وترفض أن تخرج من فمها كلمات أخرى سوى: «مياو مياو». تقترب من ساقيَّ وتمسح وجهها فيهما وتردد: «مياو مياو». تلعق كفيها وتلعق جسدي وتريد أن تلعق الأرض أيضًا وتقول: «مياو مياو». وأنا أطهر كفيها بالكحول، وأطهر الأرض بالكلور، أحذرها من الجراثيم، وأحاول أن أرفعها عن الأرض كي تقف مرة أخرى على قدميها.

أفكر في كل طرق الانتحار غير المؤلمة التي قرأت عنها، ولا يمكنني تنفيذها، إذ كيف يمكن أن تغيب وتترك قطتك الصغيرة وحيدة؟ لم تمنحني الأمومة معنى مثل ما قرأت عنه في الكتب، منحتني فقط ثقلًا يربطني بالأرض؛ ثقل الحاجات الأساسية اليومية الصغيرة: إعداد الطعام، وتغيير الملابس، وتنظيف الحمَّام ومطاردة الجراثيم، والعناية بالحيوان الذي تقرر أن تتحول إليه في كل يوم.

لا تحمل هذه التفاصيل اليومية معنى، لا تطرح أسئلة أو تقدم إجابات، لكنها فقط تشغلني عن التفكير في المعنى، وتمنحني يومًا آخر قبل أن أقرر أن أغيب عن الحياة.

تقضي الصغيرة وقتها في قصِّ كل ما تطوله يديها من الأوراق وملء البيت بالفراشات والعصافير ومراكب الورق، بينما مكنستي تطارد التراب، وفتافيت الطعام، وقصاصات الورق، لكنها لا تتمكن من امتصاص الغضب الذي يتراكم في الأركان، وأتحول في عيني الصغيرة من ماما إلى أمنا الغولة تطارد أحلامها بمكنسة سوداء تشفط كل ما تطاله.

هل قال شيئًا؟ لا أذكر، أذكر أنه صرخ، وأخذ يضرب المنضدة بقبضته حتى هشم زجاجها، وجرح كفه، ربما فزعتُ، ربما استعاد قلبي وجه الطفل الصغير الذي بادلني الخرابيش بالحكايا في الطريق الطويل من الجامعة للجيزة.

قمتُ إليه كي أحتضنه، فدفعني لأسقط على الفراش. كان بكاء الصغيرة يرتفع بالخارج، فتحتُ الباب، وخرجتُ لها، جلست على الأرض واحتضنتها كي تهدأ، ولم تلحظ الدماء التي لوثت ملابسي. رأيته يخرج إلى الحمَّام ويغلق الباب من خلفه، رغم صوت انسياب المياه في الحوض سمعت صوت أنين مكتوم، خرج من الحمَّام إلى الصالة، وجلس على الأريكة، دفن وجهه بين كفيه. هل كان يبكي؟ ربما.

هل بكى أبي يومها؟ أذكر أنه كان يصرخ، ينظر إلى أنبوب الكانيولا ويردد: «ثعبان». لكن يديه التي نجحتُ في تقييدهما بإحكام إلى جوانب الفراش المعدني لم تنجح في فك الكانيولا. كانت الأنابيب والأسلاك تحيط بجسده، كلما أفاق صرخ وقال إن الثعابين تحيط به.

كنت أعددها له كي يطمئن: هذا خرطوم الكانيولا من أجل الأدوية، وهذا خرطوم القسطرة من أجل البول، وهذا خرطوم المعدة من أجل الطعام، وهذا السلك لقياس التنفس، وهذا لقياس دقات القلب. لا توجد ثعابين هنا، الثعبان كنت تمسكه في يدك، يشق صوته الهواء ويهبط على جسد أمي.

نظر لي دون أن يبدو عليه الفهم، ثم حدق في السقف وقال إن الثعابين ستهبط من الأعلى كي تضربني على رأسي، ستلتف على رقبتي كما التفت على رقبة أمي. ما الذي فعلته يومها؟ هل زدت جرعة المسكن في المحلول أكثر من اللازم كي يصمت؟ أم إنني فقط لففت العجلة البيضاء الملتصقة بأنبوب المحلول الشفاف كي يزيد من سرعة سريانه في جسده فينتهي أسرع؟ هل غضبت من ذكره لأمي؟ أم إنني كنت فقط أرغب في أن يهدأ قليلًا كي أتمكن من النوم؟

لا أذكر، أذكر فقط أنه استمر بالصراخ، أن كل ثعابين الأرض لم تكن قادرة على إخماد صراخه. قلت له: «كفاية أنا تعبت»، وخرجت قليلًا من الغرفة، وحين عدت كان الصراخ قد توقف، والجسد سكن، والسائل الشفاف راكد في الأنبوب لا يسير إلى مجراه.

...

أحمل على رأسي من الذنب ما يكفي لإطعام الطير لسبعٍ قادمات، عجافٍ كقلبي. يمتد الذنب من طرف حزام أبي المعلق في كفه إلى أنبوب الدواء المغروس في ذراعه، ثم يلتف على رقبتي كحبلٍ، أغزله بصبر يومي، وأنتظر صباحًا مثاليًّا أشد فيه طرف الحبل كي يحررني من ضحكات الصغيرتين، وصراخ أمي، وبكاء أبي.

باب شقتي مغلق، لا ينفتح أبدًا، كي لا يزعج صرير مفصلاته الصدئة نوم الصغيرتين، باب مهجور اتخذت العناكب أعلاه مسكنًا، وغزلت من ردائها الهش ما ظنت أنه يواري سوأتي، واتخذت العصافير الصغيرة إلى جواره عشًّا.

كثيرًا ما عدت لأطرق الباب لكن أحدًا لا يفتح، أدق بقوة أكبر، فتفتح الجارة في الشقة المقابلة بابها وتقول إنهما سافرا. أخبرها بأن تصمت، وأدق على الباب مرة أخرى، أنا

أعرف أنهم يختبئون في الداخل، الصغيرتان تحبان لعبة الاستغماية، وأبوهما يلعبها أحيانًا، تخبط الجارة كفًّا بكف، وتغلق بابها في وجهي.

أدق على الباب وأسأل: ألا يسمح لي بالعودة والدخول؟ ألا يرق قلب الصغيرتين؟ ألا يكفي هذا كي يقص لسانه ويبتلع مخاوفه، ويصدق الحكايات ويفتح لي بابه وذراعيه؟

سأعيد ترتيب البيت، وألمع مكتبه البني، وأزيح التراب المتراكم بين نقوشه. سأغير مسار الزمن وأعيد ترتيب الحكاية كي تسامح هزائمي وتغفر ذنوبي.

كانت العصافير الصغيرة في عشها لا تكف عن الزقزقة، التفت حولي، وجدت قطعة من الخشب ملقاة إلى جانب السلم، أخذتها ورفعتها إلى العش، وخبطته بقوة، سقط أحد العصافير الصغيرة على الأرض، مددت يدي إليه، أمسكته وقبضتُ عليه بقوة حتى شعرت بدفء ولزوجة أشلائه تغطي كفي، سمعت طقطقة العظام الرفيعة، وخمد صوت زقزقته، هكذا لن يزعج الصغيرتين في نومهما صوت الزقزقة.

عدتُ إلى شقتي الصغيرة وحدي كعادتي، دفنتُ وجهي في أقرب حائط كي لا أرى شيئًا وبدأت في العد: «عشرة، عشرين، ثلاثين، أربعين».

لقد اعتقدتُ دائمًا أني أعرف كل أماكن الاختباء، أسمع صوت أقدامهن المرتبكة تجري من هنا لهناك، ثم تخفت الأصوات تدريجيًّا حتى تتلاشى.

«خمسين، ستين، سبعين». يقول أبي: «خبِّي ديلك يا عصفور»، ينتف ريش ذيلي، ويقص جناحي أمي، أتحول من عصفور إلى حرباء، أجيد الاختفاء فلا يمكنك رؤيتي.

«ثمانين، تسعين»، أنا حرباء صغيرة، يمكنني الاختباء حتى في أنبوب الكانيولا الشفاف، أسري في جسده دون أن يعرف أحد، ألم يقُل الطبيب إن الوفاة طبيعية؟

«خلاويص؟»

أبحث أسفل المقاعد، وبين ذرات التراب، أفتح الدولاب وأزيح ملابس الصغيرة التي لم تُمس منذ سنوات، أبحث بين طيات الفساتين التي أرصها بحرص على الرفوف، وأسأل أين راحت الصغيرة ولمَن تركت الفساتين؟

أبحث تحت السجاجيد، في أكوام الأطباق المتسخة في الحوض، بين أوراق الدفاتر. أنادي وأبكي، ثم أضع كفي على فمي كي لا يرتفع صوتي فيوقظهن من النوم.

في النافذة المقابلة رأيت المرأة تحتضن طفلتها، هل كانت تبكي؟ اختبأتُ وراء الستارة كي أتمكن من مراقبتهما، رأيتها تدير وجه الطفلة إلى الحائط، والطفلة تضحك وتنادي:

«خلاويص؟» رأيتُ المرأة تجمع أوراقًا ودفاتر، وتُخرج من الغرفة حقيبة سفر كبيرة، رأيتها ترتدي حذاءها وتردد بصوتٍ مرتفع: «لسة». رأيتُها تحمل أوراقها وحقيبتها، وتتجه إلى باب الشقة، تسألها ابنتها: «خلاويص؟» فتفتح الباب، تردد للمرة الأخيرة بصوتٍ عال: «لسة»، ثم تصفع الباب وراءها.

النهاية